

هذه هي البذور الإنسانية السليمة التي زرعت في تلك الأرض الخصبة الطيبة ، يحوطها سياج من الفقر والامية ، وما يتبعهما من عيش البداوة ، ليحول بينها وبين ما يفسدها من الخبائث والأوصار : أو هو الجانب الروحي السامي الذي استقبل به الجزيرة شمسها بعد أن دار الزمان دورته ، فودعت ليها المظلم ، لتستقبل نهارها المضيء ، فكانت البعثة المحمدية هي هذا النهار . الذي أشرقت شمسها على العالم أجمع ، فطهرته من أرجاسه ، وهدته من ضلالاته ، وأرشدته من غيه ، وأخرجت الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ، الله الذي له ما في السموات وما في الأرض .

جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والعالم على ما عرفنا : ضعيف ضائع ، وفقير جائع ، وغنى كنود ، وقوى جعود ، وجهل مستحكم ، وظلم متحكم ، والناس طبقات بعضها فوق بعض ، لا يميزها علم نافع ، ولا عمل صالح ، وإنما هو البطش والقهر بحكم العصبية والقلب ، وبسطة الجاه ووفرة المال والولد ، حتى تنهى تلك الطبقات إلى طاغوت من الطواغيت يسمى كسرى أو يسمى قيصر ، يؤلهونه تأليها ، ويتخذونه من دون الله رباً ، فموا لا يحكمهم بل يستعبدونهم ، وليسوا له برعية ، بل هم لذاته عبيد ، ورحم الله أمير الشعراء حيث يقول :

أتيت والناس فوضى لا تمر بهم إلا على صنم ، قد هام في صنم !

جاء الإسلام لحرر هؤلاء العبيد ، وكسر هذه الأصنام ، وطرد سدتها ، وهدم أوكار عبوديتها . وأعلن أن الناس جميعا إخوة متساوون في الإنسانية ، ربهم واحد وأصلهم واحد ، كلهم لآدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على عجمي ، إلا بالتقوى : . يأياها الناس إنا خلقناكم من ذكروأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير ،

واشتد في ذلك حتى كانت هذه العقيدة أول ما عمل على تأصيله في النفوس ، ولعل بعض مثقفي اليوم الذين يعرفون عن مدينة الغرب أكثر مما يعرفون عن الإسلام : لعل هؤلاء يجهلون أن الإسلام هو أول مقرر لتسوية الفقير بالغنى في حق التعلم ، وأنه لا ينبغي أن يحول حائل بين الفقير وبين مشاركته الغنى ، لا في نوع التعليم ولا في مكانه ، فلا يجوز أن يكون لهذا مدرسة ولذلك أخرى ،

كما أنه لا ينبغي في العبادة أن يكون لهذا مسجد ، ولذاك آخر ، وكان ذلك لما رغب قريش إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن ينحى عن مجلسه الضعفاء والعبيد ، حتى يمكن أن يحضره الأشراف والعظماء لسماع القرآن ، عسى أن يهدوا بهديه : فشنع القرآن على هؤلاء القوم ، وبالع في التكبر على هذه الرغبة ، ونزل قوله تعالى : . ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شيء ، وما من حسابك عليهم من شيء ، فتطردهم فتكون من الظالمين . .

حرم الإسلام الربا ، وكان كما هو الآن وفي كل زمان مباءة ضر وإضرار ، وسبباً من أشد الأسباب في الفقر وضياع الأموال ، وأحل البيع وسائر المعاملات النافعة المشروعة ، وشرع الزكاة ، فجعل للفقير حقاً مفروضاً في مال الغني بأعد بينه وبين طرفين يتحكان الآن في العالم باسم الرأسمالية والشيوعية ، فقرر من هذا الحق ما يكفي الفقير ، ولا يرهق الغني ؛ وهذه الزكاة المفروضة أنقذ الفقير من الحاجة والعوز ، وصان نفسه من الضعة والذل . ذلك أنه حينما يأخذ الزكاة إنما يأخذ حقه المفروض الذي وضعه الله في مال الغني ، وألزمه بأدائه عبادة كالصلاة والصيام ، ووفاء كالدين والعارية ؛ وبهذا أزال ضغن الفقير واحتقان قلبه بالبغضاء على الغني ، ووقى الأمة شر هذه الثورات الفتاكة ، التي يبعثها الفقر باسم الشيوعية أو الاشتراكية المتطرفة . ولم يقف الإسلام عند حد الزكاة المفروضة في هذه المساواة ، بل ترك الباب مفتوحاً لمن شاء أن يزداد من الخير ، ودعا إلى البذل والإحسان ، يل إلى التفضل بالإيثار في كثير من آي القرآن الكريم : بل لقد قدمه على الزكاة المفروضة في بعض هذه المواطن : ولا غرو ، فإن ما يدفع نافلة أدل على السماحة وعلى الإيمان بما يدفع فريضة ؛ ومن هذا قوله تعالى : . ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب . .

فإتياء المال هنا هو هذا الإحسان غير المفروض ، أما الزكاة المفروضة فذلك حيث يقول بعد هذا في الآية نفسها : . وأقام الصلاة وآتى الزكاة . .

ويلاحظ أيضاً أن الإحسان وإيتاء المال على حبه صدقة لوجه الله ، لم يتقدم على الزكاة المفروضة وحدها ، بل قدم عليها وعلى الصلاة أيضاً ، بل لتمد قرن بعقيدة الإيمان نفسها فذكر بعدها مباشرة .

حضرات السادة :

هذه مثل هي غاية في الإيجاز لما تبعته ذكرى المولد النبوي من آثار الصلاح والإصلاح ، وقد كنا نود لو استطعنا أن نفيض القول في نواح أخرى من تلك الآثار الكثيرة التي لا يحصوها العد ، واسكن حسبنا هذا اليوم ، وحسبكم أنتم أن تقرؤوا هذا القرآن الكريم أو تستمعوا إليه ، وأن تنظروا هذه الشريعة الهادية والامة المهدية وهذا النور النجّاج المتألق الذي لا يزال — ولن يزال — إلى يوم القيامة إن شاء الله يهدي الناس إلى الاستقامة والرشاد ، وإلى الأخوة والمحبة والسلام ، ويقوم على مدى العصور مثابة للحق ، وقسطاً للعدالة ، وراية أمن وإيمان يأوي الناس إلى وارف ظلالها وإن أنكر المنكرون وجحد الجاحدون .

حسبكم أن تتأملوا هذا كله ، ثم عدوا بعد ذلك — إن استطعتم — آثار بعثة خاتم الرسل والأنبياء عليه الصلاة والسلام . فإن آثار هذه البعثة الجامعة ، لا يمكن أن تعد إلا إذا عدت آثار الرحمة الإلهية . وذلك مالا يعد : قال تعالى : « ورحمتي وسعت كل شيء » ، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ، الذين يتتبعون الرسول النبي الأمي ، الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم . فالذين آمنوا به وعزّروه ونصرّوه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون . . والسلام عليكم ورحمة الله :

حسن الظن بالاخوان

قال محمد بن بشار :

من لم يردك فلا ترد	غلط الفتى في قوله
يسد العتاب ولم يعده	من نafs الإخوان لم
واعطف بؤدك واستعده	عاب أخاك إذا هفا
واش فقل لم تعتمد	وإذا أتاك بغية

أمهات المشاكل الفلسفية

عند ابن رشد

عضلة علم الباري

لحضرة الأستاذ الدكتور محمد غلاب

المدرس بكلية أصول الدين

من المعلوم أن أرسطو قد نفى عن المحرك الأول علم ما في هذا العالم الأرضي من أحداث حائلة، وظواهر متغيرة، وجزئيات ناقصة، وأشخاص كائنة فاسدة : وعلل ذلك بأن المحرك الأول عقل محض، بل هو فوق قوة العقول المجردة . وهذا يقتضى أن يكون موضوع علمه أسمى المعلومات، ليلتئم العالم مع المعلوم، ولما لم يوجد معلوم يوازي ذاته في السمو . فقد لزم أن تكون هذه الذات — وهي أسمى الموجودات — موضوعاً لأسمى العقول، فلم يكن بد من أن يقتصر علمه على ذاته . هذا من جهة، ومن جهة أخرى أنه لما كان المعلوم علة للعلم، فقد اقتضى — لو علم المحرك الأول بالاحداث الأرضية — أن تكون تلك الاحداث علة لعله، وبالتالي لا فتقر إلى عالم الكون والفساد في شؤونه، وهذا نقص شائن يتعارض مع استغناء مقام الألوهية . وفي هذا يقول أرسطو :

« لأنه لا يناسب مقام المبدأ الأول أن يدخل عقله ما هو أدنى رتبة منه في الوجود . كيف يعلم من هو منزله عن كدر المادة ما في العالم من الاكدار والادناس، والفواحش والجزئيات الجنسية من غير أن ينقص من صفاته شيء ؟ ثم لو قلنا إن له علماً بالأشياء الخارجة عن ذاته لوجب أن يكون علمه مستفاداً منها، وأنه لا يكون علماً إلا بوجود تلك الأشياء، فصار المبدأ الأول محتاجاً إلى غيره لكي يكون علماً، وهذا لا يناسب جلال ذاته، مع ما فيه من إدخال

المادة في ذات الإله . إن المادة هي الإمكان ، فلو احتاج المبدأ الأول إلى الأشياء الخارجة لحصول العلم لكان قابلاً للتغير والاستحالة ، وذلك عبارة عن الامكان . فالأولى أن يقال : إنه ليس للإله علم بغيره ، فالواحد البسيط لا يعلم إلا الواحد البسيط وهو ذاته . فهو إذاً ، علم وعالم ومعلوم من ذاته . فالخلاصة أن المبدأ الأول هو حياة أبدية كاملة من سائر الوجوه ، مبهجة بما لها من العلم بكمال ذاتها الجليلة ، إذ ليس السرور إلا العلم بالكمال (١) .

فلما جاء ابن سينا وأيقن أن الذي حمل أرسطو على القول بهذا الرأي هو إفراطه في تنزيه المحرك الأول عن الاتصال بنقائص عالم الحس ، أقر هذا المبدأ وزاده إيضاحاً وتأصيلاً . وتوسع في تعليلاته وأدلته ، فأبان كيف أن طبيعة المدركات الحسية تقتضي مدركات تلائمها في طبيعتها وتشارك معها في المحدودية والجهة والانعصار مما تنزه عنه الباري ، وأوضح كذلك عملية انطباع المعلومات في عقل العالم ، واقتضاءها قابلية الذات الأقدس لهذا الانطباع ، ثم شرح نظرية تغير المعارف الجزئية واستلزام ذلك ضرورة ، تغير العلم ثم تغير العالم ، إلى غير ذلك مما أفاض الشيخ الرئيس في بسطه ورددنا عليه في موضعه مفقدين (٢) ما ذهب إليه من آراء .

جاء بعد ذلك أبو حامد الغزالي فرمى فلاسفة الاسلام بالكفر من أجل هذه النظرية ونظريتين أخريين ، هما أزلية العالم ، وحشر الأرواح دون الأجساد ؛ فلما اطلع ابن رشد على هذه المعركة الحامية الوطيس انتفع بما دار فيها من أخذ ورد ، وتمحيص وتحليل ، وتوجيه وتعليل ، وتخطيء وتصويب ؛ وأخيراً أعلن أن من رمى الحكماء بحدود علم الله للجزئيات فإنه لم يفهم مراميهم ، ولم يدرك مغازيهم ، لأنهم لم يحددوا في نظره علمه بها على الإطلاق ، وإنما جحدوا العلم الشبيه بعلم الحوادث ، أي العلم المعلوم للوجودات ، لا ما كان علة لها .

(١) انظر صفحتي ٥٢ ، ٥٣ من كتاب « تاريخ المذاهب الفلسفية » للأستاذ سائق (مخطوطة بدار الكتب المصرية) .

(٢) راجع صفحة ٦٢ وما بعدها من كتابنا « مشكلة الألوهية » .

وبعد أن يبسط هذه المشكلة بسطا وافيا يعرض فيه لما فهمه المتكلمون من آراء الحكماء فيها ، ويصارع الغزالي بأنه أخطأ القصد ، وجانب الحق ، يشرع في بسط الفكرة التي ارتأى أنها تحمل في ثناياها حل هذه المعضلة العويصة ، فيقول بعد كلام طويل ما يلي :

« والذي ينحل به هذا الشك عندنا هو أن يعرف أن الحال في العلم القديم مع الموجود خلاف الحال في العلم المحدث مع الموجود : وذلك أن وجود الموجود هو علة وسبب لعلنا ، والعلم القديم هو علة وسبب للموجود ، فلو كان إذا وجد الموجود بعد أن لم يوجد حدث في العلم القديم علم زائد كما يحدث ذلك في العلم المحدث ، للزم أن يكون العلم القديم معلولا للموجود لا علة له : فإذا واجب ألا يحدث هنالك تغير كما يحدث في العلم المحدث : وإنما أتى هذا الغلط من قياس العلم القديم على العلم المحدث ، وهو قياس الغائب على الشاهد ، وقد عرف فساد هذا القياس . وكما أنه لا يحدث في الفاعل تغير عند وجود مفعوله ، أعني تغيراً لم يكن قبل ذلك ، كذلك لا يحدث في علم القديم سبحانه تغير عند حدوث معلومه عنه : فإذا قد انحل الشك ولم يلزمنا أنه إذا لم يحدث هنالك تغير ، أعني في العلم القديم ، فليس يعلم الموجود في حين حدوثه على ما هو عليه ، وإنما لزم ألا يعلمه بعلم محدث ، لكن بعلم قديم ، لأن حدوث التغير في العلم عند تغير الموجود إنما هو شرط في العلم المعلول عن الموجود . وهو العلم المحدث . فإذا العلم القديم إنما يتعلق بالموجود على صفة غير الصفة التي يتعلق بها العلم المحدث ، لا أنه غير متعلق أصلاً كما حكى عن الفلاسفة أنهم يقولون لموضع هذا الشك : إنه سبحانه لا يعلم الجزئيات ، وليس الأمر كما توهم عليهم . بل يرون أنه لا يعلم الجزئيات بالعلم المحدث الذي من شرطه الحدوث بحدوثها ، إذ كان علة لها لا معلولا عنها كالحال في العلم المحدث . وهذا هو غاية التنزيه الذي يجب أن يعترف به ، فإنه قد اضطر البرهان إلى أنه عالم بالأشياء ، لأن صدورها عنه إنما هو من جهة أنه عالم ، لا من جهة أنه موجود فقط ، أو موجود بصفة كذا ، بل من جهة أنه عالم ، »^(١)

أما نحن فإننا لا نرتاب ألبتة في أن أرسطو كان صريحا في نفي العلم بعالم الكون والفساد عن المحرك الأول ، ومن آيات هذه الصراحة التي لا تحتمل أدنى ريب أن تلاميذه — وهم ألصق الناس به وأعلمهم بآرائه — قد أخذوا عليه ذلك وهاجموه من أجل تلك الفكرة قائلين له بعد كلام طويل : « ثم جعلت هذا المحرك لا يعقل إلا ذاته بدعوى أنه لا يليق بجلاله علم ما في الأمور الدنيوية من الجزئيات الدنيئة ، ثم مثله بقائد الجيش ، فكيف يقود الأمير الجيش إذا لم يبصره ولم يخطر له ببال ؟ وكيف يصح تدبير العالم من متحيز في نفسه ، مقصور على علم ذاته لا يحاوزها : وإذا جحدت تدبيره إياه ، فمن أين وجود العالم في بدء نشأته ؟ ومن أين بقاءه إذا لم يكن المبدأ الأول حظ في تدبير أموره ولا أدنى إلمام به ؟ فكأنك قد جعلت الإله والعالم قطعتين منفصلتين لا اتصال لإحدهما بالآخرى ، وقد انتقدت أفلاطون حيث جعل عالمين : علم الحس وعالم المعاني واليقين ثم عجز عن بيان الاتصال بينهما . وأنت قد وضعت العالم ثم وضعت الإله مقابلا له ، فعجزت عن بيان ماهية العالم وما هية الإله بما يزيل الشك ويدرك الشبهة حتى بقيا متقابلين لا اتصال بينهما ولا تأثير . فإذا تحققنا قولك وسبرنا معنك وجدنا أنه لا حاجة للإله بالعالم ، ولا حاجة للعالم بالإله (١) . »

وكما أننا نجزم بثبوت هذا الرأي لأرسطو فإننا كذلك لا نتشكك في أن ابن سينا كان واضحا غاية الوضوح فيما ذهب إليه سواء منه ما تأثر فيه بأرسطو أو ما ابتكره في تأييد هذه النظرية . ولا نتردد في الجزم بأن توجيه ابن رشد هذا هو غير ما أراده أولئك الفلاسفة ، ولكننا أيضا لانجاري الذين رموا هذا الفيلسوف الأخير بالتعصب للفلاسفة إلى حد أنه كان أشد منهم حرصا على أنفسهم كما يقولون ، أو الذين زعموا أن كلفه بمخاصمة الغزالي وتخطيئه هو الذي دفعه إلى الانزلاق في هذا المأزق الحرج . وإنما نحن نرى أن أحد تعليلات أرسطو لنفيه العلم عن المحرك الأول — وهو تخرجه من أن تكون الموجودات الحائلة علة للعلم الأزلي — هو الذي قد سطع بريقه على عقل ابن رشد فألهمه فكرة هذا

التوجيه الشخصي حيث ساءل نفسه عن تلك العلية فألفاها واردة فتأمل فيها وحاول التنقيب عن وسيلة للتخلص منها ، فاهتدى إلى فكرة العلم القديم الذى لا يشبه العلم المعلول للوجودات الكائنة الفاسدة ، وهو العلم الذى اصطدم به أرسطو . فوقف منه بين نارين ولم يكن له بد من اختيار أحد أمرين ، أحلاهما مر ، وهما : القول بمعلولية العلم الأزلئ للشخصيات الحادثة ، أو القول بنفى العلم عن المحرك الأول بتاتا . ولما كان الأمر الأول لا يؤيده المنطق من ناحية ، وكانت فكرة موضوعية الذات الأسمى للعقل الأسمى تحتل فى رأسه موضعا بارزا من ناحية أخرى ، فقد رجح اختيار الأمر الثانئ . أما ابن رشد فلم يقو على احتمال نفي العلم عن البارئ ، ولم يستسغ فكرة معلولية هذا العلم للوجودات الحادثة ، فأجهد نفسه فى البحث عن حل لهذه المعضلة يرأب ما انصدع بين هذين الطرفين المتعارضين ، وكانت تلك المعارك الجدلية العنيفة قد هيات له أسباب هذا الحل . فلم يلبث أن ظفر به وأعلنه . ولكن الذى نأخذه عليه هو زميه كل من تقدموه بعدم استكناذ مرمى الحكماء من آرائهم مع ما كانت عليه تلك الآراء من جلاء . ومن الممكن أن يكون قد تصور أنه ما دام هو قد استطاع كشف هذا التوجيه . فلا بد أن يكون أرسطو — وقد عرفت رأيه فيه من قبل — قد كشفه بالأولى .

وكما أننا نأخذ على ابن رشد مغالاته فى تقدير أرسطو . نأخذ على أبى حامد زميه أولئك الأعلام بالكفر مع ثبوت حسن نياتهم والتحقق من أنهم لم يقصدوا من وراء هذا النفي إلا تنزيه البارئ عما تصوروا أنه شائن بمقام الألوهية وإن كانوا قد أخطئوا فيما ذهبوا إليه غير باغين ولا عادين .

الجاهل

قال النبئ صلى الله عليه وسلم : . الجاهل يظلم من خالطه . ويعتدى على من هو دونه ، ويتطاول على من هو فوقه ، ويتكلم بغير تمييز ، وإن رأى كريمة أعرض عنها ، وإن عرضت فتنة أردته وتهور فيها .

نقول : الجهل هنا بمعنى السفاهة كما قال الشاعر الجاهلى :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

الحب

بين العباد والرب

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد محمد المدني
المفتش بإدارة الأزهر

-

لفظ الحب وما تصرف منه ، من الألفاظ الكثيرة الدوران في الكتاب العزيز : فقد جاء في أكثر من ثمانين موضعاً منه على أساليب شتى ، إثباتاً ونفيّاً : وهو أيضاً من الألفاظ التي وردت في السنة المطهرة على نحو ما وردت في القرآن الكريم .

وه الحب ، فيما جاء من هذا وذاك نوعان :
(١) حب العبد لله .

(٢) وحب الله للعبد .

ولكل واحد من هذين النوعين ظاهرة جديرة بالنظر والدرس :

فأما حب العبد لله فهو منزلة ترتفع بصاحبها إلى أعلى درجات السمو والكمال والتزّه : وهذه المنزلة تستدعي من صاحبها أن يؤثر محبته — كما هو الشأن في كل محب — بكل شعب من شعاب قلبه وفكره ، وأن يضحي في سبيله بكل رغبة من رغباته ، وأن يتحمل في رضاه كل عناء ، ويصبر على كل بلاء : ذلك أن الحب — كما يعهده الناس بين بعضهم وبعض — هو علاقة فوق المعرفة ، وميل وانعطاف فوق الإرادة والرغبة : فكل واحد منا يعلم من نفسه أنه يعرف فلاناً من الناس ، أو يعرف كذا من الأشياء معرفة رضا وقبول دون نبوة عنه أو نفور منه ؛ ولكننا لا نسمي هذا حباً ، لأن الحب أعمق في نفس المحب أثراً ، وأكثر

لفراغ القلب شغلا ، بل الحب الحقيقي هو الذى لا يترك فى القلب فراغا ، ولا يدع للنفس سبيلا للتوجه إلى ما سوى الحبيب .

وإذا كان الأمر بهذه المثابة ، فحب العبد لله هو الإيمان الحق ، وليس الإيمان الحق مجرد المعرفة وإذعان النفس ، وبعبارة أخرى : الإيمان الحق هو إيمان المحب لله المنفعل به الذى يؤثره على نفسه ، وتبدو آثار حبه إياه فى جميع أقواله وأفعاله وتصرفاته : أما الإيمان الجاف الصامت السلبي الذى لا يعدو الإذعان النفسى ، والإقرار القلبي ، ولا تظهر آثاره فى مظهر من المظاهر العملية الإيجابية ، فليس هو الإيمان الذى يريده الله من عباده .

إن المؤمن الحق هو الذى أدرك جمال الله وجلاله ، وأدرك لطفه وإحسانه ، وعلم علم اليقين أنه هو المنعم المفيض الذى لا إنعام إلا به . ولا فيض إلا منه ، ثم انفعّل بهذا الإدراك فأحبه ، فأصبح قلبه مشغولا به ، وعمله موجها إليه ، ولذته وارتياحه فى طاعته وعدم المخالفة عن أمره . يتحمل فى ذلك ما يتحمل راضيا مغتبطا قرير العين مطمئن القلب ثابت القدم : فإذا أحسن إليه حبيبه تلقى هذا الإحسان شاكرًا بلسانه وقلبه وفعله : وإذا ناله شيء فى سبيل مرضاته تلقاه صابرا عليه ، غير متبرم به ، ولا ضائق به صدرا .

ذلك هو المحب ، وذلك هو المؤمن : وآية ذلك أن الله ذكر الكافرين والمؤمنين فجعل حبه هو العلامة المميزة بين هؤلاء وهؤلاء إذ يقول : « ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حبا لله . » وذكر الذين يتبدلون بدين الحق ما سواه فقال : « يأبى الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه . » فقد وضع الحب فى موضع الإيمان . وقد نعى الله على الذين يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة فوصفهم بأنهم « يحبون العاجلة ، ويذرون وراءهم يوما ثقيلا » أى أنهم أحبوها فأثروها ، ولو أحبوا الله لآثروه . كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة . » وقد نفى الإيمان عن يوادون أعداء الله فقال : « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم

أو عشيرتهم ، وذلك لأن عدو المحبوب عدو للمحب ، كما أوجب على المؤمنين حب رسوله وحب أوليائه ، لأن محبوب المحبوب محبوب ، ورسول المحبوب محبوب ، وفي ذلك يقول الرسول الكريم : « لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين » . « وما تحاب اثنان في الله إلا كان أفضلهما أشدهما حبا لصاحبه » . ويقول الله عز وجل : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » . وهكذا نرى حب الله وإيثاره على كل ما سواه هو الإيمان الحق في كل ما جاء على لسان الشرع . والدستور الجامع في ذلك هو قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ، ومن يتولهم منهم فأولئك هم الظالمون . قل إن كان آباؤكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فمربصوا حتى يأتي الله بأمره » . والله لا يهدي القوم الفاسقين .

وأما حب الله للعبد فلم يثبتته القرآن الكريم إلا لذوى الأعمال العظيمة التي تفوق في قيمتها ومنزلة العاملين بها ما سواها من جنسها ، ولم ينفعه إلا عن ذوى الصفات السيئة الموغلة في السوء التي من شأنها أن تشيع الضرر والفساد .

بيان ذلك أن الآيات التي أثبتت حب الله للعباد تصف هؤلاء العباد المحبوبين بأوصاف هي أمهات الأخلاق ومنابع الفضائل النفسية ، ولها من السموعما يشاركها في أصل معناها ما يجعلها جذيرة بالحب الذي هو فوق مجرد القبول والرضا .

ومن ذلك قوله تعالى : « إن الله يحب المحسنين » والإحسان صالح لأن يراد به الإنعام على الغير ، وأن يراد به الاتقان والتبريز في كل شيء ، فإذا أريد به الإنعام فهو منزلة فوق الإعطاء لأن الإعطاء قد يشاب بشائبة من المن أو الأذى أو اختيار الأذى تخلصاً منه . ولا يكون العطاء إحساناً حتى ينزه عن ذلك كله ، ويسمو صاحبه فيه إلى الدرجة التي يصفها الله ورسوله في مثل : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا عما تحبون » و « لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى » و « ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه » و « إن الله طيب لا يقبل

إلا طيباً . من كل ما يدل على تحرى الحالة الفضلى ، والصورة المثلى فى كل جانب من الجوانب .

وإذا أريد بالإحسان إتقان العمل عامة والاحتفال به والتبريز فيه ، فليس كل من أدى عملاً يكون محسناً بمجرد أدائه ، فالأداء قد يكون مجرد تخفف وإبراء ذمة . أما إحسان العمل وأدائه كاملاً متقناً فهذا شيء آخر : وإلهم ليقلون : إن الإحسان فوق العدل إذ العدل هو التسوية ، والإحسان معنى زائد عليها ، فمن أدى الحق وأخذ الحق فهو عادل . ومن تجاوز عن بعض حقه مسامحة منه وكرماً ، وأعطى أكثر مما عليه تلطفاً منه وتفضلاً ، فهو محسن : ولذلك يقول الله عز وجل : « فمن عُنى له من أخيه شيئاً فاتبع بالمعروف وأداء إليه بإحسان » . فيطلب المبروف فى الاتباع والمطالبة ، والإحسان فى الأداء ، ويقول : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » فلا يكتفى بالعدل الذى هو المساواة ولكن يأمر بما فوقه وهو الإحسان ، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون .

بهذا يتبين أن الله جلت حكمته لم يمنح حبه مجرد الإنفاق أو الأداء على ما جرت به العادة ، وإن كان يرضى عن ذلك ، ولكنه منح هذا الحب الذى هو فوق الرضا والقبول لما يناسبه .

ولما كان المحب يعامل حبيبه بمنتهى الكرم ، ويتلطف معه أعظم التلطف ، فإن الله جل علاه يعامل المحسنين الذين يحبهم هذه المعاملة ، فيقول : « وبشر المحسنين ، « إن رحمة الله قريب من المحسنين » ، « إن الله لا يضيع أجر المحسنين ، « وسيزيد المحسنين ، « وإن الله لمع المحسنين ، .

وكما يقال هذا فى الإحسان يقال أيضاً فى الصبر ، إذ الصبر منزلة فوق الاحتمال ، لأنه مجاهدة وحبس للنفس عن كل ضجر أو تبرم ، وهو أساس كثير من الفضائل ، وإن اختلفت أسماؤها : فالشجاعة هى الصبر على مكاره الجهاد : والجود هو الصبر على بذل المال والمعروف : والكتمان هو الصبر على شهوة الإفاضة والكلام : والعفاف هو الصبر على نوازغ النفوس والشهوات : ورعاية الصدر هى الصبر على المثيرات والمحفظات ، وهكذا : ولذلك يعلن الله أنه : يحب

الصابرين ، ويذكر الصبر في خصال البر ، والصابرين في البأساء والضراء ، ويحمل
الصابرين هم أصحاب الحظ العظيم ، وما يُلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو
حظ عظيم ، ويعلن أنه سيغفر الصابرين بمزيد من الفضل الذي يعادل هذا الحب
فيقول : « وبشر الصابرين » ولنجزي الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا
يعملون » إنما يوفي الصابرون أجرهم بغير حساب » إن الله مع الصابرين ،
« يحزون الفرقة بما صبروا » ، وجزاهم بما صبروا جنة » ، سلام عليكم بما
صبرتم فنعم عقبى الدار » .

وقل مثل هذا في بقية المواضع التي أثبت الله فيها حبه لعباده ، مثل قوله تعالى
« إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » ، و « يحب المتقين » ، و « يحب المتوكلين » ،
و « يحب المقسطين » ... الخ .

وقد جاء الحديث الشريف مؤيداً لهذا المعنى القرآني إذ يقول عليه الصلاة
والسلام فيما رواه عن ربه « قال الله تعالى : لا يزال عبيد يتقرب إلى بالنوافل
حتى أحبه . فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به » .
وليست النوافل في الحديث هي صلاة ركعتين أو ركعات بين يدي الفريضة
أو بعدها خصب ، ولكنها كل زيادة وفضيلة فوق ما هو مطلوب في العادة ،
وذلك يشمل كل ناحية من نواحي الحياة ، كالأحسان والصبر والتقوى
والتطهر ... الخ .

ومعنى قوله « كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به » هو التوفيق
والهداية والرعاية في كل حال ، نتيجة للحب الذي منحه إياه : ولا شك أن الذي
يسمع بالله ، ويبصر بالله لا يفضل ولا يشقى : وذلك أيضاً هو معنى قوله تعالى
« إن الله مع المحسنين » ، و « مع الصابرين » إذ يلزم هذه المصاحبة كل
توفيق وسداد .

يقي بعد ذلك الآيات التي نرى فيها الله حبه عن عباده ، مثل قوله تعالى : « والله
لا يحب الفساد » ، و « لا يحب المفسدين » : ولا شك أن الفساد إجرام فوق
العادة ، وأن المفسدين أعداء المجتمع والعاملون على تقويض بنيانه ، وزعزعة
أمنه واطمئنانه . فإن الشخص الذي يذنب ذنباً عادياً يكون جرمه على نفسه ،

أما الذى يعيث فى الأرض الفساد فجرمه على المجتمع كله : ولذلك قد يتوب الله على الأول أى يوفقه للتوبة والرجوع ويغفر له ، أما الثانى فقلما يوفق للتوبة لأن قلبه مظلم ، ونفسه فى ضراوة الوحوش الكاسرة .

وحسبنا أن الله جل علاه يذكر الفساد والمفسدين فى أخطر المناسبات ، إذ يقول : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » ، ولولا دفعُ الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن » .

ونتيجة هذا المقت للفساد والمفسدين هى ما ذكره الله عز وجل فى مثل قوله « إن الله لا يصلح عمل المفسدين » ، زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون ، « فانظر كيف كان عاقبة المفسدين » .

وكذلك يتمال فى قوله تعالى : « إن الله لا يحب الظالمين » ، وفى القرآن الكريم بيان عاقبة هذا المقت وعدم الحب : مثل قوله « إنه لا يفلح الظالمون » ، « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم » ، « فأخذهم العذاب وهم ظالمون » ، « وقد خاب من حمل ظلما » .

وأحسب أنه لا يصعب بعد هذا البيان على من شاء من القراء ، أن يتتبع الفكرة على هذا النحو فى مثل قوله تعالى : « إن الله لا يحب الكافرين » و « لا يحب الفرحين » ، و « لا يحب من كان مختالا فخورا » ، و « لا يحب من كان خوانا أثيما » .
وخير ما أنختم به هذا الحديث دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم الذى كان يدعو به ربه « اللهم ارزقنى حبك ، وحب من أحبك ، وحب ما يقربنى إلى حبك » .

الود للأكرمين

قال العطوى الشاعر :

ومن بمؤاخاته	تشرّف	صن الود إلا عن الأكرمين
ضمير مودته	أجيف	فكم من أخ ظاهر وده
بما هوى لك أو زخرف		ولا تغتر من ذوى خسلة
تذكر منه الذى تعرف		إذا أنت عاتبه فى الإخاء

شعراء الازهر

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ عبد الجواد رمضان

المدرس بكاية اللغة العربية

ليس الشعر مما يعدّه الازهر من مفاخره : فالعلماء ورثة الانبياء : والنبوة والشعر لا ينتقيان : وقد قيل لحسان رضى الله عنه : لان شعرك فى الإسلام : قال : لان الإسلام ينهى عن الشر ! وقال الخبيث بشار : أزرى بشعرى الأذان . ذلك إلى أن من طبيعة البحث العميق الذى يمتاز به الازهرى أن يعوق عن البراعة فى الشعر .

غير أن هذا كله لم يحل دون أن يقول الشعر كثير من الازهرين فى القديم والحديث : ودون أن يجيده ويبرز فيه أفراد ينزلون فى الصفوف الأولى من صفوف الشعراء المعدودين فى جميع العصور : ولا يضيرهم أن كانوا قليلين ، فإن الشعر موهوب ، لا مكسوب : تربيته الثقافة وتنمويه ، ولكنها لا تعطيه : وقد يضحي الازهرى بهذه الموهبة إيثارا لما هو بسيله مما هو الأشرف الأهم ، والمقصد الأعظم .

ولست أريد أن أؤرخ للشعر فى الازهر ، منذ كان الازهر : ولا أن أترجم لكل من يقول الشعر فيه : فإن شرح ذلك يطول ؛ ويفتح أبوابا ليس من الخير أن تفتح . وإنما أقصر على هذه الفترة التى ابتدأت بعصر إسماعيل الى اليوم : على أن أتناول أمثال من يقول (١) :

أز مع الركبُ رحيلًا فأتعدُّ	فالتياغا ، قبح الله الجلدُ !
زعموا أن غدا فرقتنا	ذكروا الموت فسئوه بعدُ
ما لجفنى بولع البين به	إنه لو كان بحرا لنفد

لا أمثال من يقول (١) :

علوم الفقه والتوحيد — والتفسير . أشباه
علوم حشوها جهل وتخليط عرفناه
وبعض رجالها ضلوا وفي أوهامهم تاهوا
ولولا حسن نيتهم لقلنا : حسبنا الله !

وقد نغفل بعض من لا يروقه أن نعرض لهم عن لهم في الشعر مقام معروف
توخياً لرضاهم ، وبعدا عما عساهم يعدونه تحسباً غير مرغوب فيه : وإن كان هدفنا
الأصلي في هذا الموضوع ، هو الإشادة بذكر الأزهر من ناحية غير مطروقة ،
لا التوسع في النقد ، ولا الإقازة في التراجم والتفاصيل . وربما أغفلنا الترتيب
الزمني ، لاعتبارات وضرورات تقتضيها ذلك الاغفال المؤقت حتى تغلب
على بواعثه .



مركز بحوث الدراسات الإسلامية

(١) السيد حسين والي

هو السيد حسين والي بن العلامة السيد حسين والي بن السيد إبراهيم والي :
ينتهي نسبه إلى الامام أبي عبد الله الحسين بن علي ، رضي الله عنهما .

ولد في منية أبوعلي من أعمال مركز الزقازيق في مديرية الشرقية : في رجب
الفرد سنة ١٢٨٥ ، نوفمبر سنة ١٨٦٨ ، وطلب العلم في الأزهر ، منتسباً إلى رواق
معمر ، إلى أن نال شهادة العالمية سنة ١٣١٧ هـ - ١٨٩٩ م . وأذن بالتدريس
في الأزهر سنة ١٩٠٠ ، ثم ندب للتدريس في مدرسة القضاء الشرعي سنة ١٩٠٧ ،
ثم عين مفتشاً في الأزهر والمعاهد الدينية سنة ١٩١١ ، ثم وكيلاً لطنطا سنة ١٩١٤ ،

(١) للميل المحترم الشيخ عبد المتعال الصميدى

ثم سكرتيراً عاماً للمجلس الأعلى بالأزهر سنة ١٩٢٠ ، وبقي في هذا المنصب إلى أن ألغى في ديسمبر سنة ١٩٢٦ ، وفي ٧ من شهر ربيع الأول سنة ١٣٤٣ (٦ من أكتوبر سنة ١٩٢٤) عين في هيئة كبار العلماء بمرسوم ملكي كريم نصه :

« عتین فی هيئة كبار العلماء كل من حضرات : الشيخ محمد مصطفى المراغي الحنفي المذهب رئيس المحكمة العليا الشرعية ؛ والشيخ حسين والي السكرتير العام لمجلس الأزهر الأعلى والمعاهد الدينية ، والشيخ محمد الحلبي ، والشيخ سيد علي المرصفي ، الشافعي المذهب . . »

وتوفي - طيب الله ثراه - في ٢٨ من فبراير سنة ١٩٣٦ ، وهو عضو في مجلس الشيوخ ، وفي المجمع اللغوي . وما تزال أصداء جولاته تدوي في قباها ، فيتجاوبها آفاق العروبة في مشارق الأرض ومغاربها إلى اليوم .



والسيد حسين والي . أحد الأقطاب الذين سما حظهم من التبهر في علوم اللغة العربية وآدابها ؛ وأخذوا بأفاقها وشعابها . على جميع الباحثين والمتأدين ؛ في عصر النهضة ، فلا يسبقهم سابق ، وإن ناصاهم شواذ في أقطار الشرق العربي معدودون معروفون . هم الأئمة ، وسائر الناس على آثارهم مقتدون .

لا جرم أن مواهب السيد حسين والي ، جديرة بأن تبوئه هذه المنزلة الرفيعة التي لا ترام : فلقد كان - إلى تبهره في علوم الأزهر - كاتباً قديراً ، وشاعراً خلا . يكتب كما يكتب حمزة فتح الله ، والسيد توفيق البكري ، والشدياق الخ ؛ ويشعر كما يشعر حمزة فتح الله ، والسيد توفيق البكري ، وآل اليازجي ، وغيرهم وغيرهم من كبار الكتاب وفول الشعراء ؛ في مصر والشام والعراق ؛ ويصاول المؤلفين والباحثين في وزارة المعارف وغيرها ، وينقدم وينال منهم ويوجههم فيتجهون . ويفتي في اللغة والأدب ، فينقطع كل قول ، ويخفت كل صوت . ذلك بأنه كان مطلعاً ، فقيهاً لغوياً ، ذواقاً ، هاضماً لما علم ، واثقاً بما يقول ؛ والإيمان بالرأي أقوى أسلحة الشجاع . وكان الطبعي أن ينال السيد حسين والي

من الشهرة عند الخاصة والعامة كفاء هذه الموهب المتوافرة : بيد أنه غرض من شهرته شمائل : هي في شرفها وعنصرها أنفس جوهرها ، وأعز قيمة . وأرفع جمالا من كل شهرة .

كان السيد حسين والى غالبا في التعصب القديم ، يعتز به ، ويحافظ عليه . ويرعاه في دينه . وفي سمته ، وفي لغته ، وفي كل ما يحيط به . حتى لقد سمي أولاده : أسامة ، ولؤى ، ونزار ، والفرات . يحدوه إلى ذلك نسبة الشريف . ونشأته الأزهرية ، ووقار ألبسه الله منه رداء فضفاضا : ثم نزع صوفية عميقة ستعلم نبأها بعد حين .

هذه الشمائل المركبة في طبيعة السيد حسين والى : أبت عليه :

أن يدعو إلى التجديد : أبهر أسلحة الشهرة في هذا العصر

وأن يتبدل ، فينكت ، ويشتم ويشتم ، ويهدم السابقين ، ويخطئ اللاحقين : وأن ينافق ، فيلقى كل قائم بوجه ، وهو يؤمن بأن ذا الوجهين لا يكون عند الله وجيها : وأن يكثر ، فيملأ الصحف والمجلات ترثوه ، وتحدثا مرددا مكرورا .

والحمد لله الذي ركب في طبيعة السيد حسين والى ما ينافر وسائل الشهرة في هذا العصر ، فلو لا ذلك لما وجد الخبز كثير من المشهورين !

وبعد ، فليس من همي أن أترجم للسيد حسين والى ، فأن ذلك --- إلى أنه يتقاضاني مجهودا ضخما --- ليس من صميم موضوعي : وحسبي هذا التعريف الموجز بهذا العلم المطوى . علّ فيه غرارة بنشره ، مفخرة للأحياء ، ووفاء للأموات . بيد أن لدى من نواحي الإعجاب بهذا الرجل العظيم ، ما يشجعني على معالجته في فرصة أخرى ، وفي موضع آخر . نسأل الله التوفيق .

قلنا : إن المترجم شاعر فحل ، وهو حكم لا يخامرنا شك في صحته وبعده عن كل مجاملة وإسراف ؛ ولا نلن ناقدأ بخالفنا فيه ؛ إلا بمثل ما قيل في السيد

توفيق البكرى ، من أن شعره لا يوافق روح العصر . وهذا ليس تقدماً للشاعر ولكنه نقد لمذهبه : وهو كلام لا وزن له : أما الموهبة الشعرية التي هي مناط النفي والإثبات . فأنها كاملة ضخمة عند السيدين ، كليهما : على أن السيد البكرى وإن لاقى السيد والى في أن كليهما شاعر مقل ، أوسع مضطرباً ومجالاً منه : فلقد سمعنا وقرأنا للبكرى كثيراً : ولم نسمع ولم نقرأ لوالى إلا القليل .

فمن هذا القليل تقريره لكتاب « شذا العرف » ، للمغفور له الشيخ الحلاوى : وهذا التقرير أبلغ الدلالة على قوة الشاعرية عند المترجم ، فقد التزم فيه — على طريقة شعراء عصره — أن يكون الشطر الأول في البيت تاريخاً لسنة ١٨٩٤ الفرنجية ، والشطر الثانى تاريخاً لسنة ١٣١٢ الهجرية ؛ وعدة التقرير عشرة أبيات غاية في الجزالة والفخامة ، على رغم القيود والأصفاد التي كتبل بها شاعريته ، مما لا يقدره قدره إلا من عاناه . وهو في هذا الصنيع لا يقل عن الشيخ ناصيف اليازجى وولديه خليل وإبراهيم . اقرأ من هذا التقرير :

شذا العرف بالطبع ميناء رقى و برق اضطفاء الصرف لطفاً برق
كتاب كريم أغار من الخسوف وأجمل كل كتاب سبق
صنيع أخى الفضل داني الأبادى وأرقى جليل شريف الأرق
أغرّ البرايا النيل الفريد من البدر دون ذكاه انمحق
غياث العلا الحلاوى العزيز مناط النهى من به الفخر حق
لعمرك هذا الذى عزّ جاها يبت ثابه المديح نطق

هذا شعر لو قيل على الطبيعة ، لدلّ على قوة الموهبة الشعرية عند قائله ؛ فكيف وقد كتبل كما قلنا بالأغلال والأصفاد ؟ .

وبما وقفنا عليه من شعره : القصيدة النومية ، التي ندع له رحمه الله تعالى تقديمها . قال :

« قال منشئها ، الفقير إلى الله . حسين والى الأزهرى الشافعى ، ابن العلامة المرحوم السيد حسين والى ، الحسينى : سبب إنشاء هذه القصيدة ، أنى اجتمعت

مرة بالمقطب الرباني ، والهيكل الصمداني ، صاحب البركات والنفحات ، سيدي ومولاي الشيخ ابراهيم أبي العيون ، أستاذ السادة الصوفية ، وملاذ القادة الخلوتية : وكَلَّمْتُهُ في حاله مع الغوث ، فقال : مني للمصطفى : وبعد جدال مع الاستاذ في شأن ذلك ، ومطالبتة بالدليل ، قال لي : ما تراه في النوم ، أخبرني به . فإزلت أفكر في أمره ، حتى رأيت في الرؤيا بمصر ليلة الجمعة ٢٦ شعبان سنة ١٣١٤ ، النبي صلى الله عليه وسلم . ويد الشيخ في يده مثل المتصالحين : وأنا والغوث على بعد يسير من الشيخ ، وقصوفا في تجاهه . مغموسين في أنواره صلى الله عليه وسلم . تعمنا هيبة ووقاره : وأشار عليّ صلى الله عليه وسلم ، أن أمدح الشيخ ، وأصف حاله وحاله : فدحته بهذه القصيدة واقفا ، حيث لم يتغير أمر واحد منا عما هو عليه : وكأنّ هذا بالمدينة المنورة ، في فضاء ، ليلا : ثم استيقظت فكتبتها إلا قليلا شط عن فكري ، فاجتهدت فيه إلى أن وفقت له بإرشاد منه صلى الله عليه وسلم في رؤية أخرى : ثم لما تلوتها على الشيخ بحضرة الأجلاء من الإخوان ، أمرني أن أصلي وأسلم على النبي صلى الله عليه وسلم في بيت ، ففعلت : فكانت واحدا وسبعين بيتا ، من مخلع البسيط : ثم قال لي : انتظر الإذن منه بالتسمية ، فانتظرت ، حتى أذنت بهذا الاسم ، الإشارة النبوية ، وعلى الله القبول ، اهـ .

ومطلع هذه القصيدة :

أَمْسَيْتُ بِاللّهِ فِي شُؤُونِ وَالْجَنِّ وَالْإِنْسِ فِي شُؤُونِ

لَمْ أَنَسْهُ ، وَهُوَ خَيْرٌ مَعْطٍ لَا فِي حَبَابِكَ وَلَا سَكُونِ

ومنها :

وَالْأَمْرُ عِنْدِي أَمْرُ رَبِّي وَالْأَمْرُ عِنْدِي أَمْرُ دِينِي

أَرْنُو ، وَلَكِنْ لَصْنَعُ رَبِّي وَذَاتَهُ الْأَقْدَسُ الْمَتِينِ

فَلَوْ حَلَفْتُ بِأَنْ عَيْنِي لَمْ تَغْفُ ، مَا زَغْتُ فِي يَمِينِي

أنسى هو الله في جموع وفي مُعدُون ، وفي ظعون^(١)
 في الحب أغرقت في بحور وما لجأت إلى سفين
 وإن شربت ، شربتُ نورا والناس تشرب من معين
 سـلوا قريبي إذا تسنى عن كنه عشقي يُحبُّ قريبي^(٢)
 لا لوم ، إن لم أطع خدينا غنيت بالله عن خدين !
 وهـل أخاف سوى قوى عدل ، بقبضته ورتبي
 سقاني الله كأس شوق على ضروب من اللثون !
 ومنها ، وهو في الصميم :

أنـح قـرب المزار على شكواي ، والقرب ذو نون
 حقـا أراني أبو العيون طه — وربى — بالميون
 قطـب يدور الرضا عليه ومنتهاه مُـدى البطون^(٣)
 قطـب جدير بأن وكانت لبابه أجمع المتون
 نفسى تطاوعه وكانت من قبل ، كالصافن الحرون
 تبعته قد رأيت وإنى دخلت في كهفه الحصين
 أزال إبليسَ عن نزالى حتى نجموت من الخثون
 بفضله السابق الفوادي خلصت من زمن الفتون
 به تحققت ما برانى لما تلقيت باليمين
 فإن تكن للورى عيون فلي وحيدا أبو العيون !
 ومنها ، وهو عوذتها :

يا مصطفى أنا منك فارأف بحادث وامق مـهين
 مشكتُ بين يديك أرجو أن أستمـر على اليقين
 يا سيد الأنبياء إني أـمل لإحسانك الهتون
 أنقذ فوادي من أمور فإنما هو كالجنين

(١) عدون : إقامة . (٢) قريبي : الملك الموكل بي ، وتسنى : أمكن .
 (٣) البطون ، الاحيال .

لو لم أر الآن منك حلماً لغررتُ في نازل بطين^(١)
على التقى والهذى أعنى وسدّ إن كثرت ديونى
وإن عصيت فكن شفيحاً فليس غيرك بالقمين
فإن نار السعير ليست تزداد عنى بالحصون
من ذا يُسلم في وليد له إلى مُحرق مهين
وهل أرى في القيام غياً وأنت - دون الورى - ضميني ؟
وختمها بقوله :

صلى وسلم مصطفىه عليه فوق مدى السنين

والقصيدة بالمقدمة المذكولة هنا ، مطبوعة بالمطبعة الشرفية سنة ١٣١٤ هجرية ،
وبها مشها تعليقات وجيزة ، وهى فى أسلوبها ومعانيها ، تعرب عن نفسها .



رحم الله الإمامين الجليلين ، ونفعنا بآثار هذا السلف الصالح . آمين .

الفخر بالموت

كان العرب يتماجدون بالموت فى الحروب ، ويتهاجون بالموت على الفراش .
قال السموءل مفتخراً :

وما مات مناسيد حتف أنفه ولا طل منا حيث كان قتيل
تسيل على حد الظباء نفوسنا وليس على غير السيوف تسيل
يقول مامات سيد منا على فراشه قط ، ولا ذهب دم قتيل لنا هدرا ، ولم نر
فى تاريخ جاهلية أمة أنهم كانوا على هذا النحو من استساغة الموت والتباهى به ،
وإمل ذلك كان منهم مبالغة فى التمدح بالشجاعة .

(١) النازل للبطون : المنفذ للبيدلى الأرض .

موقف المسلمين

من القرآن الكريم

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الحميد عنتر

الأستاذ بكلية اللغة للعربية

-

أُنزل القرآن على نبيينا محمد صلى الله عليه وسلم ، منذ ١٣٨٠ عاماً^(١) .
ولم يزل بعناية الله محفوظاً من التحريف والتبديل إلى عصرنا هذا ، ثابتاً كالطود
الشامخ ، يرد بغى الباغين ، وكيد الكائدين .

وكلما مرت عليه الأحقاب والسنوات ، ازدادت على طول الزمن جدته ،
وتمثلت لقارئه قوته ، وتجلت للناس عظمته ؛ ولن يزال كذلك بإذن الله حتى تقوم
الساعة : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

واقْدَكَانَ للمسلمين معه في تلك الحقب الطويلة موقفان : موقف السلف ،
وموقف الخلف : وهما نذا أشرح الموقفين . أما الأول فلذ كراه الطيبة ، وأما
الثاني فللعظلة والاعتبار :

موقف السلف من القرآن :

لما نزل القرآن الكريم تلقاه المسلمون الأولون بصدور منشرحة ، ونفوس
مطمئنة ، وقلوب مؤمنة ؛ وجعلوه إماماً يقتدون به ، ودستوراً يعملون بأحكامه ،
ويسرون في الحياة على ضوء تعاليمه .

كانوا يتلونه بالسنتهم فترسم صور معانيه الجميلة على صفحات قلوبهم ،
منقوشة بيد التوفيق والهداية والإخلاص لله ولرسوله وللمؤمنين .

(١) ذلك أنه ابتداء نزوله قبل الهجرة بثلاثة عشر عاماً .

كانوا يقرءونه فيجاوز حناجرهم إلى قلوب عمرت بالإيمان ، وملئت باليقين .
وأفعمت بالشجاعة !

كانوا يرتلونه ترتيلا ليتفهموا معانيه السامية . ومراميه الواعظة ، وإشاراته
الدقيقة ، واستلزم هذا أنهم كانوا يؤدونه بطريقة الأداء العربي الفصيح ،
الحالية من التلحين الموسيقي . والنغم الغنائي ، الفاشيين الآن في قراءة قرأتنا .
وطريقة العرب الأولين هذه هي التي أشار إليها القرآن الكريم ، حاثا عليها
الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : « ورتل القرآن ترتيلا » (١) .

وقد فضّلوا رضى الله عنهم لما في القرآن من هداية وإرشاد ، فأحلوا حلاله ،
وحرّموا حرامه ، ووقفوا عند الحدود التي رسمها لهم : لذلك أثنى عليهم المولى
جل وعز ، فقال : « فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتتبعون أحسنه : أولئك
الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولو الألباب » .

فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول حينما استشفع عنده حبشه أسامة
ابن زيد في إقامة حدّ السرقة على إحدى العظيمات من نساء قريش أتشفع
في حد من حدود الله ؟ ! وإيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ! ،
وهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول لعمر بن العاص ، أحد دهاة
العرب ، ووالى مصر الأول ، وفاتحها في عهده ، لمناسبة حادثة شهيرة (٢) ، يقول له :
« متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ ! » .

وهذا على كرم الله وجهه يقول لما نزلت آية تحريم الخمر : « لو وقعت قطرة
في بئر فبليت مكانها منارة لم أؤذن عليها ، ولو وقعت في بحر ثم جف ونبت فيه
السكران لم أرعه ! » .

أما الجهاد في سبيل الله فقد طبّقوا في شأنه توجيه القرآن المستفاد من قوله
تعالى « وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة » ، ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله

(١) الترتيل في القراءة : التمثل فيها والتبيين بنير بنى ، والبنى هنا معناه مجاوزة الحد
في الغناء والمدود ، وخروج التلاوة إلى الألحان والاقاني .

(٢) حكم فيها عمر رضى الله عنه أن يقتل المعري من عمر بن عمرو بن العاص ، بالرغم من
أنه ابن حاكم مصر !

وعدوكم ، وجعلوه نُصب أعينهم ومطمح أنظارهم ، لكن لا للاستعمار والاستعباد والاستيلاء على حطام الدنيا الزائل ، بل جاهدوا في الله حق جهاده ، وصبروا وصابروا ابتغاء مرضاة الله ، ولتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، حتى قال سعد بن معاذ الأنصاري قبيل غزوة بدر مخاطباً رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخاف منا رجل واحد . وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا . إنا لصير في الحرب ، صدق في اللقاء »^(١) . وقال عتبة بن نافع لما حارب الروم والبربر وانتصر عليهم حتى وصل إلى بحر الظلمات (المحيط الاطلسي) « يا رب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك »^(٢) .

والمتتبع لتاريخ حياة أولئك المسلمين الأولين يرى أنها كانت حياة مودة وإخاء ، وعمل وكفاح ، وجد وجهاد وانتصار ، مع عزوف عن التكاثر في الأموال للأفراد ، بل للأمة والدولة لمساعدة الفقراء والموزين . ومع بعد عن الدنيا التي تفنك بالعقول والأجسام ، وصيانة الحرية الكاملة لمن كان يخالفهم في الدين من أهل الذمة . اليهود والنصارى .
هكذا كانت حياة المسلمين الأولين التي أعلمها تعاليم القرآن . وهي تلخص في كلمات :

توحيد لا إشراك معه ، وجهاد لا بغى فيه ولا عدوان إلا على الظالمين . وعمل لسعادة الدنيا والآخرة . وتكافؤ في الحقوق الإنسانية ، وتمتع بالكفاف من الرزق الحلال !

وهذه الحياة الطيبة قد اقتبسوها من تعاليم القرآن ، وطرقه المثل في الهدى والإرشاد : لذلك تم لهم ما أرادوا ، ففتحوا الأقطار ، ومضروا البلدان ، وضربوا للإنسانية المثل العليا في العدل والإخاء ، والحرية والمساواة : ودامت دولتهم على هذا زمانا ليس بالقصير ، كانوا فيه مضرب الأمثال ، ومفخرة الأجيال ، ومعجزة التاريخ . وهذا مصداق قوله تعالى : « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون » .

(١) سيرة ابن هشام (٢) تاريخ الأمم الإسلامية ، محاضرات الحفري بك الجزء الثاني .

هذا موقف سلف المسلمين من القرآن العظيم : فاسمع أيها القاريء الكريم موقف منزل القرآن جل وعز من هؤلاء العظماء حيث يقول : « كنتم خير أمة أخرجت للناس : تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله » . وهذا هو الثناء المستطاب ، الذي تشرئب إليه النفوس ، وتثلج به الصدور !

موقف الخلف من القرآن :

والآن أشير الى موقف المسلمين من القرآن بعد عصر النبي عليه السلام . وعصر الخلفاء الراشدين وبنى أمية : ليستبين فضل السلف من المسلمين السابقين ، وليتنبه المسلمون في هذا العصر الى ما قصروا فيه هم ومن سبقهم من مسلمي المصور الأخيرة ، لعلمهم يتداركون ما فاتهم من مجد وسؤدد . ويحققون ما يرمى اليه القرآن من عز وكرامة ، واتحاد وقوة !

فقد وضع المسلمون الأولون أسس العظمة الإسلامية كما أقبسوها من هدى القرآن الكريم . وكان على من جاء بعدهم أن يشيدوا على أسس هذه العظمة صرحا إسلاميا عاليا ، قوتى الأركان ، مضىء الجوانب ، يشع منه النور على جميع أرجاء المعمورة : ولكنهم — وبالأأسف — لم يفعلوا شيئا من ذلك ! بل تأخروا وتقدم غيرهم ، وكسلوا ، وجد وعمل غيرهم . وإلى القاريء البيان .

بجمل في الشئون الآتية :

(١) الاتحاد والتعاون :

دعا القرآن المسلمين الى الاتحاد والتعاون في آيات كثيرة ، ومناسبات شتى . فقال تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » ، « ولا تازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » ، « وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » ، « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم » .

فإذا كان موقف الخلف من المسلمين إزاء هذه التوجيهات السديدة ؟

الجواب : أنهم ساروا على الضد منها ، ولم يفسطوا للدسائس الجوسية الخفية ، التي دست بذورها في أرض الجامعة الإسلامية من أواخر عهد عمر رضى الله عنه ، ثم نبتت في أواخر عصر بنى أمية ، ثم نمت وترعرعت في عصر العباسيين ، ثم

كانت النتيجة أن ذهب ربح المسلمين، وتعرض بنيان الخلافة أو الجامعة الإسلامية، وقامت على أنقاضها دويلات مختلفة المشارب، مفككة العرى، ضعيفة الجانب. فإذا يرجى للإسلام منها وحالها على ما وصفنا؟ ثم قامت دولة الترك العثمانية، فلم تلبث أن منيت في ريعان شبابها بدسائس أخرى على الطراز الأول، أو أشد منه وأنكى، وأخيراً تقوضت هي الأخرى، وأصبحت في خبر كان.

(ب) التوجيه القرآني في شئون الحرب :

قال الله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » : وقال عز شأنه : « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » . لقد أعد المسلمون الأولون ما استطاعوا في وقتهم للقاء عدوهم فظفروا وكانت لهم الغلبة ، وقصر من جاء بعدهم من المسلمين في تطبيق ما ترمي إليه الآية الأولى والثانية أيما تقصير ! ذلك أن ما كان يستطيعه المسلمون في أول ظهور المحترعات الحربية الحديثة أكثر مما قاموا به فعلاً ، إذ كان في مكتهم - لو أنهم عنوا بهذا التوجيه السماي - أن يتفلقوا في أوروبا ، وينقلوا إلى بلادهم صناعة المعادن المختلفة ، وطريقة استخلاصها من المناجم المحلية ، وينقلوا مع هذه الصناعة صناعة الأسلحة الحربية الحديثة . التي تشملها كلمة (ما) في الآية الكريمة ، والتي يفسرها قوله تعالى : « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » . أنزلنا الحديد : خلقناه . والتعبير بمادة النزول يشير إلى أنه هبط على الأرض من لدن قادر حكيم . والبأس الشديد : ما فيه من قوة للفتك والإهلاك . ومنافع الحديد التي يرمز إليها القرآن : يفسرها ما هو مشاهد في عصرنا هذا من استعماله في كل مرافق الحياة إلا قليلاً . وإني في هذه المناسبة أرسلها صرخة مدوية يرنّ صداها في أنحاء العالم الإسلامي والعربي ، فأقول :

« أعتقد أنه لا تفوم للمسلمين ولا للشرق العربي قائمة إلا إذا جعلوا لشئون التعدين والصناعات المختلفة المقام الأول ، وبغير هذا لا يكون الجيش جيشاً ، ولا الدولة دولة . وسأبين بقية الشئون التي قصر فيها المسلمون الخلف في فرصة أخرى ، إن شاء الله . فإلى اللقاء »

الكبرى كالدولة والامبراطورية ، بل والانسانية جمعاء . وحين قال أحد أتباعه بأكيا : إنه لا إخوة له ، أجابه كنفشيوس : علينا أن ننظر للناس في العالم كله كأنهم إخوة ، وحيث أن يبكي إنسان لانعدام إخوته . . وأجاب عن سؤال : ما هي الانسانية ؟ بقوله : الحب ، وهو جواب يبدو كأنما هو أمر مسيحي . ولكنه ليس على حذر حتى لا نتخذنا ظواهر الكلمات ، فان نشوة الحب العجيب في خطبة الجبل^(١) كانت بعيدة عن عقل كنفشيوس الحذر الرزين ، المرتبط بأمور الأرض أشد الارتباط . وسئل : هل يجازي الانسان الشر بالخير ؟ فأجاب : « وكيف يجازي إذن عمل الخير ؟ » أما نظريته في السلوك نحو الآخرين ، فقد بينها في القانون الذهبي : « ما لا تحب أن يعاملك به الناس ، لا تعامل به غيرك » . وهي القاعدة الذائعة التي سبق بها كنفشيوس^(٢) كانت ، بخمسة وعشرين قرنا .

وإذا ألح أي إنسان ، على الرغم من أي شيء ، في أن يبحث عما يشير العواطف في مؤسس أي دين ، فانه في حال كنفشيوس يوجد الشعور بالوقار ، والحذر ، والشعور بالتقاليد الدينية من الناحيتين العقلية والعملية ، ومهما كان الأمر ، فانه شعور حقيقي أكد كنفشيوس^(٣) ، ففقد وضع برنامج الإصلاح الاجتماعي والسياسي لتحقيق السعادة للعالم أجمع : « لو قلدني حاكم مقاليد الحكم اثني عشر شهرا لحققت شيئا عظيما ، وفي مدى ثلاث سنوات احقق أغراضى بأجمعها » . وقد اضطر الى ترك إقليسه « لو » ، وجاب الأرض بقية حياته من ولاية إلى أخرى ، يبحث عن الحاكم الذي يقلده مقاليد الحكم . وكان يقابل في أحسن الأحوال باحترام واستقبال غير حار دون وعود ، وأحيانا بجفاء ، بل وبالسجن . ولكنه لم يجد الحاكم الذي يبحث عنه . ولما شعر بدنو أجله قال : « لم يوجد حاكم ذكي يقلدني مقاليد الحكم ، لقد انتهى زمني ! » وهذه آخر كلمات تروى عنه . لقد كان أول وأعظم « عقلي » . هو في نفس الوقت أول ولعله أعظم « دون كيشوت »^(٤) بأحسن معاني هذه الكلمة .

(١) السيد المسيح .

(٢) بطل القصة التي كتبها بهذا الاسم الكاتب الإسباني المعروف سرفنتيز في القرن السادس عشر الميلادي . ويعتبر هذا من « إنسان خيالي » أو « حلم متعمس » (للمرب) .

وما كان لي أن أعتذر ، وهذه الحفلة تقام لافتتاح الموسم الثقافي لمكتبة

الأميرة فريال ، تلك المكتبة التي لها في نفسى مقام ملحوظ ، وذكري عزيزة :
فقد أنشئت لنشر الثقافة في ضاحية لها مكانتها . وقد بذل في سبيل إنشائها جهد
موفور حتى أصبحت لا أقول : ضخمة . ولكن أقول : أنيقة ، وإن الأناقة لمن
حوافز القراءة ودواعي الاقبال على المطالعة ، ونحن محتاجون الى هذه الحوافز
نعالج بها انصراف الناس عن دور الكتب وعن التزود من زاد العقول .

وأما الذكري العزيزة لهذه المكتبة في نفسى فهى أنى كنت خطيباً في حفلة
افتتاحها يوم شرفها جلالة الملك المعظم بزيارته ، وكان ذلك في الفترة التي كتب
على أن أكون فيها وزيراً للمعارف . والحمد لله على السلامة منها . وقفت يومئذ
أذكر ما للكتبات من أثر في توكيد النهضة وإمدادها بأسباب النماء والازدهار .

ولقد كان صديق الداعي رفيقاً في هذه الليلة ، فترك لي تحديد الموضوع ،
وخيراً فعل ، فإني لا أتحدث إلا في موضوع يترك لي اختياره . لأنى في هذه
المواقف من الهواة لا المحترفين ، وليس على الهاوى إلا أن يتكلم بما يحيش به
صدره ، ويخطر بباله ، في غير تكليف ولا إملاء .

سألت نفسى : فيم أتكلم ؟ ولم يطل بي التفكير . فقد ذكرت أنى منهم بالتشجيع
للرأة ، وكنت أرمى بهذه التهمة وأنا وزير للمعارف حين تظهر الترقيات ، فيقال
إنى أرقى النساء الى الدرجات العليا التي هي وقف على الرجال . ولما كنت قد نشأت
لا أفرق بين المرأة والرجل ، بل أعتمد أن الله خلقهما لتحقيق وحدة المجتمع
وتنسيقه . فإني لم أكن أعير سمعى لتلك الدعاوى التي تميز فريقاً دون فريق .

وما إن ذكرت ذلك حتى اخترت ، محيط المرأة ، موضوعاً للحديث ،
وحسنى من دواعي الاختيار لهذا الحديث بعينه أنه متصل بهذه المؤسسة التي تحمل
اسم أكبر درة في تاج الفاروق ، وهى غفر الفتيات : الأميرة فريال . فليكن
لموضوع الحديث قبس من ذلك الشرف الذى أضفى على تلك المؤسسة الكريمة .

وكذلك حفزنى على اختيار هذا الموضوع أننا فقدنا بالأمس القريب سيدة
من أكرم سيدات الشرق على الشرق ، وهى المرحومة المبرورة هدى هانم شعراوى

وكلنا نعرف جولاتها في الإصلاح . وجهودها في المطالبة بحقوق المرأة ، وما كان لها من مروعات ومبرات تؤيد بها الرسالة التي نصبت نفسها لها ؛ فمن تكريم ذكرها — طيب الله ذكراها — أن نتحدث عن شأن كان شغلها الشاغل ومهما الأكبر .

ونما زادنى إشارا لهذا الموضوع أن المجتمع تشيع فيه اليوم ألوان من الآراء في حقوق المرأة ، وتختلف المعسكرات الاجتماعية والثقافية في تعيين اتجاهها وتبيان مهمتها . ولقد قرأت في هذه الأيام كلاما ألقى في شعبة من شعب هيئة الأمم المتحدة جاء فيه : أن المرأة الشرقية ما تزال محجورا عليها ، وأن هناك فوارق وفواصل بينها وبين الرجال ؛ وأن مرد ذلك إلى الدين الاسلامي ، ووقوفه عقبة في سبيل نهوض المرأة ومساواتها بالرجل .

وإذن فمن الخير أن يكون حديثي عن مقام المرأة في ظل التشريع الاسلامي حتى يتبين ما لها من حقوق ، وما عليها من تبعات .

ولست أدعى أني أستطيع من استيفاء القول في هذا الموضوع في وقفة واحدة : فإن شؤون المرأة تتطلب سلسلة من المحاضرات والأحاديث ، ولا غرو فإنها تكون نصف المجتمع ، وتوحي إلى النصف الآخر : وطالما قلت في أحاديثي : إني أخشاها ، وقد تكون خشيتي مبعثا الاحترام لها وتقدير مهمتها ، وقد يكون مبعثا إيماني بقوة بطشها إذ هي نصف متحكم في النصف الآخر : فالرجال إن حكموا أو عملوا قائما يحكمون ويعملون بوحى من وراء الستار : بل لقد ارتفع الستار وأسفر مبعث الإيحاء . وإن المرأة اليوم توجه وتتوجه ، وتثقف وتثقف ، فهي ظاهرة الوحي . غالب أمرها في كل شيء . فما قولك في نصف هو الكل ؟ !

حقا لقد مرت بالامة فترات من الظلام أصاب المرأة فيها جانب من الحيف والإخضاع ، ولكن ذلك شذوذ اجتماعي يعرض للأمم في بعض عصورها لعوامل طارئة ، ثم لا يلبث أن يزول .

إني رجل أدين بالإسلام . وفي من ثقافته قسط ، فمن الحق على أن أجهر بأن الإسلام أول من مكن للمرأة في المجتمع الإنساني . فليس بمجهول أن

المرأة حين بزغ نور الإسلام كانت في حضيض الذلة والانحطاط ، ينكر عليها حق التوريث ، ويؤبى عليها أن تشترك في أى نظام من نظم المجتمع ، فأعلن الإسلام مساواتها بالرجل ، إذ رسم لهما فروضا واحدة في العبادات والمعاملات ، وجعلها بمنزلة واحدة في الحقوق والواجبات . ترى القرآن يخاطب المرأة والرجل على إحد سواء في شئون العاجلة والآجلة ، وتراه يبين أننا نشأنا جميعا من نفس واحدة ، وأننا افترقنا جنسين لكي نوافق شطرى المجتمع البشرى : وتراه يعترف بالأسرة ويعبر عن الزواج بأنه الميثاق الغليظ : وتراه يدعو إلى المساواة بقوله : « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف » .

وإن في حياة الرسول صلوات الله عليه لما يدلنا على أنه لا فرق بين امرأة ورجل في حق أو واجب ، فقد بايعه النساء كما بايعه الرجال ، وقد استفتوه في شؤنهم كما استفتاه الرجال . وفي عهد . عمر . كان الرجال والنساء يدعون جميعا إلى الاجتماعات العامة . وما إن شق طريق الجهاد حتى انفتح للمرأة المسلمة باب وقفت فيه موقفا إنسانيا يعطر به ذكر التاريخ ، وما إن تحاققت حلقات العلم وطلبت رواية الحديث حتى اشترك النساء بالسهم الوافر ، فرويت عنهن الأحاديث ونقل عنهن الشرع ، ولم يخف أثرهن في سياسة أو اجتماع .

أطلق الاسلام حرية المرأة ، فأباح لها التصرف فيما تملك ، ولو وازنت بين شرائع الغرب وشرعية الاسلام لتجلى لك أن الاسلام أبر بالمرأة وأكفل لحقوقها وأكثر إفساحا لحريتها من التشريع الحديث . وأذكر أنى لقيت سيدة هي زوجة مشرع فرنسى كبير ، فتحدثت إلى فيما تحدثت تزف الى أن فرنسا في طريقها إلى استصدار تشريع يبيح للمرأة المتزوجة التقاضى دون إذن الزوج . فقلت لها : أما زالت فرنسا متأخرة إلى هذا الحد ؟ فقالت : نحن أول أمة غربية سنت هذا القانون ؛ فقلت لها : يوسفى بل يسرنى أن أخبرك بأن الاسلام فرغ من ذلك منذ أربعة عشر قرنا ، فمنع المرأة هذا الحق ، واعترف لها بالرشد التام .

فما لا ريب فيه أننا نحيا في ظل تشريع كفل للمرأة ما تطمح اليه من الحقوق ؛ وإذا كانت المرأة قد لقيت في بعض العصور إعناتا وإجحافا فليس الذنب ذنب التشريع ، وإنما هو ذنب الذين حرموا المرأة حقوقها المكتسبة ؛ ولذلك يجب

علينا أن نستقي الحقوق من منابعها الأصلية الصافية . قبل أن تكدرها عهود العنت والشذوذ . وإن نصوص التشريع وحقائق التاريخ لتدلنا أصدق الدلالة على أن ينابيع الاسلام الصافية تفيض بالخير للمرأة ، وتوجد لها بحقوقها غير منقوصة .

ماذا تطالب المرأة به ؟ بالثقافة ؟ لقد فرض عليها الاسلام أن تعلم . بالميراث ؟ لقد أعطيت نصف حظ الرجل . وليس في هذا تمييز للرجال على النساء . بل إن فيه تمييزا لمن على الرجل ، وأكاد أقول : إن فيه محابة للمرأة ، فعلى الرجل تقع أعباء النفقات ، فإن كان ثمة غنم له في الميراث فهو غنم يقابله كبير غرم . وكيف لا وقد رفعت عن المرأة أنفصال الإنفاق على نفسها وعلى ذوى قرابتها ؟ ومن الانصاف إذا أردنا الحكم على شئ أن نحكم عليه بمجتمعا متصلا بمقدماته ونتائجه . بقى للمرأة مطالبها بالحقوق السياسية . فهل حرمتها الاسلام تلك الحقوق ؟ كلا ، بل أباح لها أن تباشر مختلف الأعمال ، وتنوئ شتى المناصب . حتى منصب القضاء ، على اختلاف بين الفقهاء ، فلم من أجاز للمرأة أن تكون قاضية كالرجل سواء بسواء .

مركز تحقيق كتب التراث

إنى لا عجب لتكرار الجدل في حقوق المرأة ، وفي الموازنة بينها وبين الرجل . حتى ليجعلنا هذا الجدل معسكرين ينقسم بهما جسم الأمة الى شطرين . على حين أننا في حاجة الى التمازج والتوحد . وفي معتقدي أن المسألة ليست مسألة حقوق للمرأة تجحد أو يعترف بها ، وليست مسألة موازنة بين النساء والرجال أى الجنسين أعلى وأقدر ، وليست مسألة عجز المرأة عن الحكم كالرجل . فعلها أكفأ له . وقد جربنا حكم الرجال من عهد آدم فكانت الحال كما نرى من بلاء وشقاء . وبقي أن نجرب حكم المرأة فربما كان أحمد أثرا ، وأحسن عقي .

المسألة فيما أعتقد توزيع الاختصاص على أساس من حسن توزيع القوى والمزايا وضروب الاستعداد . ونحن في التوجيه الثقافي نهدف إلى توزيع الطلاب بحسب استعدادهم ومزايهم دون نظر إلى رغبتهم وميلهم وحقهم الطبيعي ؛ فمن واجب الدولة أن توجه كل فرد من أفراد الأمة الوجهة التي هي أكثر صلاحية لها وأكبر غناء فيها .

وإن واجب التوزيع في سبيل مصلحة المجتمع لا يمنع أن يشترك أبناء الأمة في اختصاص عام ، ثم تكون لهم ميادينهم الخاصة في غيره . والمرأة قد حباها الله رسالة جليلة هي إنشاء الجيل وتوجيهه ، فيجب أن نعدّها لتأدية تلك الرسالة على خير الوجوه . ولكي ندرك قيمة إعدادنا لها يجب أن تتمثل أن أبنائنا إذا نشروا في بيئة جاهلة رضعوا الجهالة والخور . فلا تزداد بهم الأمة إلا ضعفا على ضعف ، والأمة لا تنفاس مكانتها بعدد أبنائها ، وإنما تقاس بما لهم من كفايات ومزايا وقوى في معترك الحياة . وما دمنّا لا نغنى بأعداد المرأة حتى تخرج لنا الجيل الصالح القوي بأخلاقه ، السليم في عقله وجسمه ، فانه لا رجاء في نهوض . وسنبقى نعيش ونسير بشق مائل ، تتعثر خطانا ، ونستهدف للتداعي والسقوط .

فليكن من ههنا أولا أن نهيم المرأة لرسالتها الكبرى ، ثم نأخذ ما زاد من وقتها وما فضل من جهدها للانتفاع به في الميدان العام : على أن المرأة هي في ميدانها الأول ملكة متوجة . وفي ذلك الميدان العام جندي في غمار الجنود . فلتفرغ لمملكته قبل كل شيء . وليكن عملها في الميدان الآخر نافلة تسخو بها نفسها حين تطمئن إلى أنها قامت بالفروض خير قيام . فأما أن تحمل بنا الفوضى ، فنرى المرأة تزهد في رسالتها لتتمزق جهودها في ميادين مختلفة فإن ذلك يجعل شأننا كشأن جيش ذي وحدات ضربت فيه الفوضى أطنابها ، وترك الجند فيه مرا كزهم ، نخلت وحدات من أبطالها ، وغصت وحدات بغير رجالها . فكيف يتسنى لجيش محتل النظام كهذا الجيش أن يحارب أعداءنا الثلاثة من فقر وجهل ومرض ؟

نحن لا ننكر على المرأة أن تتعلم وأن تبلغ في التعلم ، ولا نأبي عليها أن تشارك في أي ضرب من ضروب العلوم والفنون والآداب : ولكتنا ننكر عليها كل الإنكار ونأبي عليها كل الإباء أن تتعرد على ما يفرضه النظام الاجتماعي وما تلزمها إياه الطبيعة الانسانية من عنايتها بإنشاء الجيل وتوجيهه والاستعداد له حتى لا ينشأ في عمية وضلال .

إن المرأة المصرية تطالب اليوم بحق الانتخاب ، وإني مؤيدها في هذا المطلب ، متعجب أشد التعجب ممن يخالفونها في الرأي ، فالغرض من الحياة النيابية هو

الإشراف والتوجيه ، وللمرأة نصيبها الأكبر في التوجيه : وكذلك من أغراض الحياة النيابية التقنين ، وللمرأة عقلية تمكنها من الاشتراك في سن القوانين ، وليس التقنين إلا ضوابط اجتماعية لمنع الشذوذ ، ولحشد الجهود منظمة في سبيل الخير والحق ؛ وهناك من القوانين ما هو خاص بالأسرة ، وذلك هو اختصاص المرأة الأصل ، ومن القوانين ما هو خاص بالأملاك والضرائب ، والمرأة مالكة كالرجل ، فمن حقها أن تشارك في المراقبة التي هي مناط الحكم في الدساتير . وإن من القواعد المتكررة أن من يدفع ويؤدي ، له الحق في أن يشرف ويراقب ، والمرأة لها نصيبها في الثروة والملك والميراث ، فكيف تؤدي الضرائب ولا يكون لها حق المراقبة والإشراف ؟

بيد أني أشفق على المرأة المثقفة من أن يشغلها اقتضاء هذا الحق عن أداء رسالتها الكبرى ، رسالة إنشاء جيل ديمقراطي يزن الحقوق ويمتدد الواجبات ، ويحسن النهوض بالتبعات ، ويتموى على مواجهة التيارات العارمة في ركب العالم المتحضر .

مركز تحقيق وتطوير علوم إيسدي

ومن المعلوم أن الدستور المصري لم يحرم المرأة حقوقها السياسية ، ولكن قانون الانتخاب جعل الانتخاب مقصوراً على الرجال : ولعل ذلك لأننا كنا حديثي عهد بالأوضاع الدستورية ، فأريد لنا أن نخطو خطوات رفيقة لا طفرة فيها ولا وثاب .

وأحسب أنه قد آن لنا أن ننتفع بالمرأة في المجالس التشريعية ، فإن التشريعات اليوم لم تعد مقصورة على فن الحكم الضيق ، إذ أصبحت الحكومة محور الشؤون الاقتصادية والاجتماعية .

فلنبع للمرأة الاشتراك فيما يدخل في اختصاصها : ولنلاحظ في تعليمها أن نعدّها لرسالتها الكبرى أولاً وللرسالة العامة أخيراً .

وأذكر أنني تحدثت في وقت مضى إلى كبير ياباني ، فعلمت منه أن في اليابان جامعة للفتيات ، فسأله : أتمشون الاختلاط بين الجنسين ؟ فأجابني : لسنا نخشى

من ذلك شيئاً ، وإنما قصدنا أن نهى للنساء ثقافة تودى بها رسالتها ، ولا نمنعها مع ذلك أن تتجه الى الميدان العام كما تريد .

ونحن في مصر حتى اليوم لم تؤسس جامعة خاصة نهى فيها المرأة لرسالتها الخاصة ، فتخرج الى الحياة مزودة بثقافة في تكوين الأسرة وتوجيه الزوج وتنشئة الطفل وهداية الشباب .

ولا نزاع في أن ميدان الخدمة الاجتماعية هو خير الميادين لجهد المرأة ، ونحن أحوج ما نكون الى تعمير هذا الميدان بالعنصر الصالح له .

فعلينا أن نعمل على الانتفاع بجهود الجنسين متضامنين متفاهمين ، بدلا من أن نضيع الوقت في جدال عقيم حول الحقوق التي استقرت وتبينت .

وحسبنا دليلا على حق المساواة وأنه طبيعي لا ريب فيه ، أن الريف المصرى يضم خمسة عشر مليوناً يعمل نصفهم من النساء عمل الرجال بجانب عملهن الخاص . وليس بعد هذا برهان على استطاعة المرأة العمل في الميدانين الخاص والعام ، ولكن الريفية لم تتقف ولم ترب ، ولذلك تعاني ضعفا في القيام بمهمتها التي تبذل فيها جهدها كله ، ولو تجردت نساؤنا المثقفات للخدمة الاجتماعية في الريف لارتفعن به الى مستوى لا يبق كريمة .

فلتعمل المرأة والرجل ، فإنه لا خير في مجتمع لا يتعاون فيه الجنسان معا على العمل . ولنعلمها حسرا لا هوادة فيها على عوامل الفقر والمرض والجهل ، حتى تنهض بالامة نهضة حققة .

بلاغه الاستعطاف

لما ظفر المأمون بابراهيم بن المهدي ومثل بين يديه ، قال ابراهيم : كل ذنب دون عفوك ، فإن صفحت فسكرمك ، وإن أخذت فبحقك .

ثم قال : يا أمير المؤمنين : إنه وإن كان جرمي يبلغ سفك دمي ، فحلم أمير المؤمنين وتفضله يبلغاني عفوه ، ولى بعدهما شفعة الاقرار بالذنب ، وحرمة الأب بعد الأب . فقال المأمون : لو لم يكن في حق نسبك ما يبلغ الصفح عن زلتك ، لبلغك إليه حسن توصلك ، ولطيف متصلك .

ابراهيم هذا كان عما للمأمون ، خرج عليه وقاتله ليغتصب الخلافة منه .

ابن حزم

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الله المراغي
مدير إدارة المساجد بوزارة الأوقاف

نسبه ومولده ونشأته :

هو أبو محمد بن علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف ابن معدان بن سفيان بن يزيد مولى يزيد بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس الأموي. وأصله من بلاد فارس. وأول من عرف مسلباً من أجداده يزيد. ولم نفق في تاريخ صحيح على رفع نسبه بعد يزيد. يقول صاحب كتاب « نفح الطيب » : إن أباه أحمد يكنى بأبي عمرو ، وجده « غالب » بن يزيد . ويقول ابن خلكان : إن « غالباً » بن صالح كما قدمنا . ويرجع الاضطراب في اسم بعض أجداده إلى أن النسابين لم يعنوا بالأنساب التي تنحدر من أصول غير عربية عنايتهم بالأصول العربية . والمعروف أن أول من دخل الأندلس من أجداده جده خلف ، فأقام فيها وأعقب ، حتى ولد علي المشهور بابن حزم في بيت كريم من والد عظيم هو أبو عمرو أحمد الذي كان رئيساً للوزارة في عهد المنصور بن أبي عامر . وكان مولده في آخر يوم من رمضان سنة ٣٨٤ هـ — ٧ من شهر نوفمبر ٩٩٤ م في قرطبة . ولا عجب أن ينشأ ابن حزم نشأة كريمة فيها نباهة الشأن ، ورجاحة العقل ، وحرية الرأي ، وشجاعة القلب ، وجرأة المنطق ، والطموح إلى المعالي ، والمغامرات في سبيل الاحتفاظ بالمجد والتسامي فيه .

لذلك نرى أن ابن حزم قد توافرت له عوامل النبوغ والنهوض ، واجتمعت له أسباب كثيرة تفاعلت فأضفت عليه من ذبوع الصيت ورفع الذكر ما لم يجتمع لغيره في عهده ، بل ندر أن يحفظ التاريخ في غير عهد ابن حزم ما حفظه لابن حزم من مقومات العظمة ، وبواعث الإجلال التي كانت مشارع إعجاب محبيه والمعجبين به ، ومثار شأن مبغضيه وشائيه والحاقدين عليه .

تعلّمه وشيوخه ونبوغه :

لم يلبث ابن حزم حين درج ، حتى حفظ القرآن في سن مبكرة ، ثم عُني بحفظ متون العلوم وهو لا يزال يافعا ، ثم أخذ يتذوق معاني هذه المتون حتى أحاط بموضوعاتها على أكابر علماء قرطبة الذين لمحوا فيه لونا من الذكاء قل أن يُعرف بين معاصريه ، واستشرفوا فيه فطنة أكبروها : فأعربوا لوالده أن لولده مستقبلا عظيما ينتظره . ويذكر ابن حزم في كتابه ، طوق الحمامة ، أن شيخه في كثير من العلوم هو العالم الكبير عبد الرحمن بن أبي يزيد الأزدي الذي غادر الأندلس في حرب الطوائف . كما درس ابن حزم على الشيخ أحمد بن الجصور عالم الأندلس المنوف في سنة ٤٠١ هـ . ومن شيوخه الذين نشئوه يحيى بن مسعود المحدث المشهور ، وقد تلقى عليه ابن حزم الحديث رواية ودراية ؛ كما أخذ الفقه عن شيوخ قرطبة : وكان في نشأته شافعي المذهب ، ثم انتقل إلى مذهب أهل الظاهر . وأخذ المنطق عن محمد بن الحسن المذحجي القرطبي . وله شيوخ آخر كانوا يترددون على منزل والده يتناوبون ابن حزم تأديبا وتعلما ؛ ولكن ابن حزم لم يكن بالتلميذ الذي يعتمد على معلمه يرضع على أيديهم ندى العلوم ، أو يرتكن على ما يستخلصه أساتذته من عصارات الفنون ؛ بل كان عصاميا ؛ فما إن شب عن الطوق حتى أخذ يقرأ لنفسه ، ويدرس لنفسه ، ويفكر لنفسه ، معتدًا برأيه ، مستقلا بفهمه ، معتزا ببحنه ؛ ونبغ في علوم جمة ، فكان فقيها مفسرا محدثا أصوليا متكلما منطقيا طبييا أدبيا شاعرا مؤرخا ، عاملا بعلمه ، ثم زاهدا في الدنيا بعد الرياسة التي كانت له ولأبيه من قبله في الوزارة وتدبير الملك في بلاط أمراء قرطبة .

ابن حزم بين عهدين :

كان ابن حزم في عهده الأول رجل العلم والحكمة والرياسة والحكم ، وكان وزيرا يكبر الوزراء ، ومستشارا يبرز المستشارين ، عالما يفوق العلماء في ذلك العهد الذي قرب إليه الكثيرين وحبب إليه الكثيرين ، كما أبعد عنه الكثيرين وبغض فيه الكثيرين ؛ فكان له أصدقاء وأعداء ؛ فلما نشبت الاضطرابات السياسية في قرطبة التي أنزلت الأسرة العامرية عن عرشها ، وقد كان والد ابن حزم مستوزرا فيها ، تأثر مركز الوالد والولد بهذه النكبة الفادحة ، فعانى الاثنان من صنوف المحن

الشيء الكثير وخاصة بعد سنة ٤٠٠ هـ — سنة ١٠١٠ م : فقد عاد هشام الثاني الى العرش ، وكان لهذا أثره في نفس الوالد حتى توفي في نهاية ذي القعدة سنة ٤٠٢ هـ فأقام ابن حزم بقرطبة بعد وفاة والده الى المحرم سنة ٤٠٤ هـ فغادرها حيث لم يطب له فيها المقام ، وهو لا يطبق الضيم ولا يرضاه ، ولا يطعم الذل بل يأباه : فقد وجد أن الحروب الأهلية مزقت شمل الأكاير في قرطبة ، وأن البربر خربوا قصر أسرته البديع ، فلم يجد بدا من الرحيل ، فاختار المرية مكانا لإقامته .

ولكن هل طابت الإقامة لابن حزم في هذه البلد ؟ نعم إنه استطاع أن يعيش قليلا هادئ البال ، حتى اتفق على بن محمود مع خيران صاحب المرية على خلع الأمير سليمان الأهوى عام ٤٠٧ هـ ، وعظم نفوذ خيران ، ورأى في ابن حزم خصما يتآمر عليه لمصلحة الأمويين ، فلم ير بدا من سجنه هو وصديقه أحمد بن إسحاق للتخلص من نشاطهما ، فظلا في السجن بضعة أشهر : ولكن ابن خيران رأى في بقاءهما — ولو سجينين — شبحا مخيفا ، ففأهما حيث ذهب الرجلان الى حصن القصر ، فوجدا من حاكمه صدرا رخصيا ، ومكشاعده موضع التكريم والقبول ، حتى نودى بعبد الرحمن الرابع المرتضى خليفة في مدينة بلنسية . فاستأذنا حاكم حصن القصر وركبا سفينة ذهبا فيها الى هذه المدينة ؛ فلما وصلا رأى عبد الرحمن أن يستوزر ابن حزم ففعل : فلما قامت حرب غرناطة اشترك فيها ابن حزم مع جيش الخليفة ، فوقع في الأسر ، ولم يلبث في الأسر طويلا ، بل أطلق سراحه بعد مدة قليلة : فرأى أن يرجع الى قرطبة ، فعاد إليها في عهد الخليفة القاسم بن حمود سنة ٤٠٩ هـ بعد أن تركها ست سنوات .

ولما نودى بعبد الرحمن الخامس المستظهر خليفة بعد خلع ابن حمود سنة ٤١٤ هـ وكان الخليفة الجديد صديقا لابن حزم ، ولكن الحظ العاثر لازمه هذه المرة أيضا ، فلم يستمتع بالمنصب طويلا : فإن صديقه عبد الرحمن قتل في نفس العام بعد بضعة أسابيع ، وزج بابن حزم في السجن . وهكذا كان ابن حزم يخرج من شدة الى شدة ، ويأرجح سجناً الى سجن . فقد قضى في السجن فترات إن كان المؤرخون لم يحددوها بالضبط فإنها من غير شك أثرت في حالته النفسية ، وعرقلت جهودهم . وقد ذكر بعض المؤرخين أن ابن حزم استوزره

هشام المعتمد بعد ذلك . وهنا يغفل التاريخ ما آل إليه ابن حزم . ولكن المؤكد أن ابن حزم اعتزل أمور السياسة ، وتفرغ للدرس والتأليف والدفاع عن آرائه . وهذا عهده الآخر الذي لم يهنأ فيه بالاستقرار ، كما سنبين بعد .

مرحلة من حياة ابن حزم :

أسلفنا أن ابن حزم كان شافعي المذهب : ثم جنح الى الاجتهاد سالكا طريق أهل الظاهر ، آخذاً بظاهر الكتاب والسنة ، حاملاً على أهل القياس : ولم يحجزه جلال الأئمة — كأبي حنيفة ومالك والشافعي — عن الطعن في آرائهم ، والرد عليهم بجرحا أدلتهم : وكان لسانه في نقد سواهم من العلماء أشد وأسلط حتى لا يكاد يسلم أحد من لسانه .

قال أبو العباس بن العريف : « كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج بن يوسف الثقفي شقيقين » . فقد كانت له حرية واسعة في نقد خصومه ومخالفه في الرأي جعلته هدفاً للسهام ، وغرضاً للنبال . فلم يكن في حياته الجديدة هادي البال ، مطمئن النفس . لكثرة أعدائه وخصومه . الذين بادلوه ذماً بدم . ونقداً بنقد لم يسلم فيه من التجريح . ففهموا منه القلوب . وأبعدوا عنه الأمراء ، وحذروا منه العامة . وبغضوا فيه الطلاب : ولذلك لم يتلذذ له إلا نفر قليل من أولئك الذين لم يخشوا في مرافقته لومة لائم . وقد بلغ من أمره أن المعتضد بن عباد أحرق كتبه بإشيلية ، فقال ابن حزم :

دعوني . من إحراق رق وكاغد
فإن تحرقوا القرطاس لن تحرقوا الذي
يسير معي حيث استقرت ركائبي
ويقول في تسليه نفسه عن السجن :

ولكن لي في يوسف خير أسوة
يقول مقال الصدق والحق إنني
وليس علي من بالني اتقى ذنب
حفيظ علم ما على صادق عتب

هذه عجمالة تجلي لنا ما لقي ابن حزم في حياته من أحداث الزمن ، وغير الدهر ، ولما عودة أخرى ، إن شاء الله ؟

علم الاجتماع

بين ابن خلدون وأوجست كونت

لحضرة الأستاذ سعيد زايد

المحرر بمجمع فؤاد الأول للغة العربية

نشرنا في عددي جمادى الآخرة وشعبان من العام الماضى بحثا في علم الاجتماع بين ابن خلدون ومونتسكيو، والآن نحاول أن نعقد المقارنة بين فيلسوفنا العربى وفيلسوف غربى آخر هو أوجيست كونت. ونعتذر مقدما لحضرات القراء الكرام إن لاحظوا بعض التكرار. وسنتناول في هذا البحث الكلام عن موضوع علم الاجتماع، والاساس القائم عليه، ومنهج البحث عند كل منهما، والموضوعات الفرعية التى تكلم فيها كلاهما.

١ - موضوع علم الاجتماع والاساس القائم عليه :

رأى ابن خلدون أن هناك أخطاء شائعة لدى المؤرخين فى نقل الأخبار وتصوير الحوادث : وذلك يرجع فى كثير من الأحيان الى جهل هؤلاء المؤرخين بأحوال الاجتماع البشرى والاصول الخاضعة لها هذه الاحوال : فهم لم يعرفوا أن هذا الاجتماع فى أحواله وظواهره يشبه كل الحوادث الطبيعية التى تخضع لقوانين ثابتة ، كما أنهم لم يعرفوا أن النظم الاجتماعية ليست لها صفة استقرار ولكنها تختلف باختلاف الأمم والازمان والامكنة . وشعر ابن خلدون بضرورة إنشاء علم جديد مستقل ، ذى موضوع وهو العمران البشرى والاجتماع الانسانى ، وذى مسائل وهى بيان ما يلحقه من العوارض والاحوال لذاته . فإذا كانت

كل حقيقة متعلقة طبيعية يصلح أن يبحث عما يعرض لها من العوارض لذاتها
 وجب أن يكون باعتبار كل مفهوم وحقيقة علم من العلوم يخصه . . ويظهر من
 هذا أن الموضوع الذي يتناوله ابن خلدون بالبحث في هذا العلم المستقل هو
 الكشف عن القوانين التي تخضع لها تلك العوارض والأحوال التي نسميها نحن
 الآن بالظواهر الاجتماعية التي لا تسير أبداً وفق الأهواء والمصادفات ولا حسب
 ما يوجهها إليه آراء الأفراد، ولكنها تخضع أبداً لقوانين خاصة ثابتة مطردة لا تقل
 في ثبوتها واطرادها عن قوانين حركات الشمس في شروقها وغروبها، وتغيرات
 القمر في تزايدده وتضاؤله، وأن النظم الاجتماعية لا تستقر على حال وتختلف بعضها
 عن بعض بحسب اختلاف الأمم والأزمنة والأمكنة . . وإلى هذه الفكرة يشير
 بقوله : « فإن كل حادث من الحوادث ذاتاً كان أو فعلاً لا بد له من طبيعة تخصه
 في ذاته » و . « أن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة
 واحدة ومنهاج مستقر، وإنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال
 إلى حال، وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار فسكذلك يقع في
 الآفاق والأقطار والأزمنة والدول »

أما أوجيست كونت فلا يعنى بتحديد موضوع علم الاجتماع تحديداً تاماً،
 ولا يفرق بينه وبين ما تدرسه العلوم الأخرى؛ لأنه يرى أنه كل ما عدا الظواهر
 الكونية والرياضية . . وهو لا ينظر إلى المجتمع باعتباره جملة أفراد مستقلين
 منفصلين، وإنما يرى أن للجماعة روحها الخاصة التي تضغط على الأفراد فتكون هناك
 طبيعة عامة تمتاز بها الجماعة وحدها . . ولهذا الجماعة قوانين تسيطر على مقتضاها،
 فيجب دراسة عناصر المجتمع ثم الوظائف التي تقوم بها الظواهر الاجتماعية،
 والدعائم التي ترتكز عليها هذه الوظائف وعلاقة الوظائف بعضها ببعض؛ ولما
 كانت الظواهر الاجتماعية خاضعة لقوانين تشبه القوانين الطبيعية في ثبوتها
 واطرادها فلا بد من البحث عن هذه القوانين والكشف عنها حتى يتسنى لنا أن
 نصلح المجتمع على أساس ذلك، وإصلاح المجتمع كان غرض كونت المنشود؛ فإنه
 رأى أنه لا يمكن أن يقيم إصلاحه هذا والفساد ضارب أطنابه على التفكير،
 والفوضى العقلية سائدة، فلا بد أولاً أن يكون التفكير علمياً، وأن تنتقل إلى

المرحلة الوضعية في علم الاجتماع كي تنسجم كل أنواع التفكير ، وحينئذ يتكنا أن نسير في إصلاحنا ؛ فمن الواجب أن ننظر بعين واحدة لكل العلوم فلا تدرس العلوم الطبيعية دراسة وصفية تحليلية تقصد منها الكشف عن القوانين ، ثم ننظر إلى الظواهر الاجتماعية كأنها أشياء ميتافيزيقية لا سبيل إلى دراستها وتحديداتها ، فإن هذا لا يصح . بل يجب أن ندرس الظواهر الاجتماعية دراسة وصفية تحليلية هي دراسة ما هو كائن كما هو الشأن في العلوم الطبيعية ، وبذلك نتقل بعلم الاجتماع إلى المرحلة العلمية ، وبذلك أيضا يتم الانسجام في التفكير .

٢ - منهج البحث :

من المعروف أن المنهج العلمي لعلم الاجتماع هو دراسة العالم للظواهر الاجتماعية كما يدرس أشياء واقعية . دراسة يتخلل فيها العالم عن الآراء السابقة ، فيحلل الظواهر ويرف كنهها وحقيقتها وخصائصها ، ويستعين فيها بالملاحظات والتجارب ، وبالنتائج التي وصلت إليها العلوم الأخرى ، وعلى ضوء كل هذا يحاول الكشف عن الوظائف التي تؤديها هذه الظواهر وعن علاقاتها ببعضها ببعض ، ثم يستخرج القوانين العامة الخاضعة لها هذه الظواهر . ومنهج ابن خلدون منهجا علميا فهو يستقرى الحوادث التاريخية ، ويرى أنها مرتبطة ببعضها ببعض ارتباط العلة بالمعلول والسبب بالمسبب ، ويرى أن الأغلاط التي يرتكبها المؤرخون ناتجة عن أنهم لا يقيسون الماضي والحاضر والمستقبل بقياس واحد ، ولا يتورعون عن ذكر أشياء خارجة عن منطق الواقع ، ولا تتفق مع نوااميس العمران في شيء . وهذا يدل على جهلهم بطبائع الأحوال في العمران أي القوانين التي تخضع لها الظواهر الطبيعية والجهل بقوانين الظواهر الاجتماعية أيضا . فابن خلدون يقول مثلا في صدد تحرى الحقائق التاريخية : « فليرجع الإنسان إلى أصوله وليكن مهتما على نفسه ، ويميزا بين طبيعة الممكن والممتنع بصريح عقله ومستقيم فطرته ، فما دخل في نطاق الإمكان قبله ، وما خرج عنه رفضه » . ويشرح هذا الامكان فيقول : ليس مرادنا الامكان العقلي المطلق فان نطاقه أوسع شيء فلا يفرض حدا بين الواقعات وإنما مرادنا الامكان بحسب المادة التي الشيء ، فاذا نظرنا إلى رجله وصفته ومقدار عظمه وقوته أجرنا

الحكم عليه من نسبة ذلك على أحواله . . . ، مع الابتعاد في كل ذلك عن التشيع
لآراء أو مذاهب أو ميل إليها . لأن النفس ، إذا خامرها تشيع لرأى أو نخلة قبلت
ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة ، وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها
عن الانتقاد والتمحيص . . . ، وابن خلدون في نقده للتورخين يحاول أن يربط
بين تطور الاجتماع الانساني وبين علله القريبة ، فهو ينظر في أحوال الجنس والهواء
ووجوه الكسب ويعرضها مع بيان تأثيرها في التكوين الجسمي والعقلي في
الانسان وفي المجتمع .

أما كونت ، فيتبع الطريقة الوضعية في بحثه عن الظواهر الاجتماعية وتطورها
وانشعابها ، ويقول إن من الواجب على عالم الاجتماع كي يستطيع ذلك أن يكون
ملما بمحصول علمي كامل يبدأ من الرياضة حتى البيولوجيا التي تبين للعالم الطريقة
المقارنة ، فلا بد للعالم أن يسير من السهل الى المركب ، فالرياضة ضرورة لكي
يعتمد الانسان التفكير الوضعي . لكن الظواهر الاجتماعية لا تحتاج الى استخدام
الأعداد والتحليل وحساب الاحتمالات . فان مثل هذا الحساب إذا طبق على الظواهر
الاجتماعية منعنا من المعرفة المضبوطة التي تمكننا من إخضاع الظواهر لقوانين
كسائر ظواهر العلوم المختلفة . . . وكذلك يجب أن يلم الباحث الاجتماعي بالعلوم
الفيزيائية والطبية وهي التي تكون الملاحظة بها أول وسيلة للبحث .

وعلى كل حال فأوجيست كونت يستخدم المنهج التاريخي في الاجتماع ،
فالاجتماع علم مجرد والتابع الرئيسي له هو التاريخ ، هذا التاريخ الذي غرضه البحث
عن القوانين التي تحدث التطور الاجتماعي بمقتضاها . ولا يصح أن نأخذ نظرية
جزئية لهذا الضرب من التاريخ ، بل يجب أن نعتقد أن الظواهر بأنواعها تتطور
تحت تأثير متبادل بينها . فلا يصح تفسير التطور بنوع معين من الظواهر دون
أن نعرف فكرة عامة عن التطور الكلي ، فيجب أن نتبين الحالات الخاصة من
حيث النوع والزمن ، وهذه الاتجاهات تعين مجموعة من الظواهر مساعدة لأن
تدرس دراسة اجتماعية . فإذا تم ذلك يمكن تعيين ازدهار ظاهرة من الظواهر طبيعية
كانت أو أخلاقية أو عقلية أو سياسية ، واتصال هذه الناحية باضمحلال الظاهرة
المضادة .

وهكذا فإن كونت أقام المنهج الوضعي ، ولكنه لم يستطع أن يطبقه على الاجتماع إلا بفرض علم معين له واقعيته وهو التاريخ الذي أمدّه بالأمثلة العملية لتطور الظواهر الاجتماعية ، ومن هذه الناحية يوجد شبه بين ابن خلدون ، ولكن ابن خلدون استعان بالتاريخ من أجل الاجتماع ، وفرض كونت الأول والأخير هو الاجتماع . والمهم أن ابن خلدون وكونت فكرا في التاريخ حين فكرا في الاجتماع . وأنهما وفّتا إلى ذلك باتباعهما المنهج الواقعي ، ولما كان التاريخ يعد أمثلة عملية تطبيقية للظواهر الاجتماعية فقد استعان كلاهما به .

٣ — الموضوعات التي تناولها كل منهما :

تعتبر مقدمة ابن خلدون جامعة لكل البحوث الاجتماعية التي ظهرت في العصر الحديث على يد دوركهايم ، أو بعبارة أخرى التي بعثت على يد دوركهايم بعد ما كادت تطوح بها أيدي البلى بعد وفاة كونت : فإذ رجعنا إلى مقدمة ابن خلدون رأينا أنه يلخص مادة علمه من الناحية الموضوعية في أنها « ما يعرض للبشر في اجتماعهم من أحوال العمران والملك والكسب والعلوم والصناع ، بوجوه برهانية يتضح بها التحقيق في معارف الخاصة والعامة وتدفع بها الأوهام والشكوك » . ثم بعد ذلك يقسم موضوعه إلى ستة أبواب تكلم في الباب الأول عن العمران البشري على الجملة وقسمه من الأرض ، وفي الباب الثاني عن العمران البدوي وذكر القبائل والأمم الوحشية ، وفي الباب الثالث عن الدول والخلافة والملك وذكر المراتب السلطانية ، وفي الباب الرابع عن العمران الحضري والبلدان والأمصار ، وفي الباب الخامس عن الصنائع والمماش والكسب ووجوهه ، وفي الباب السادس عن العلوم واكتسابها وتعلمها .

وهذا لا يقل عن تقسيم المدرسة الاجتماعية الحديثة التي بعثت دراسة كونت من حيث القيمة والشمول لمواضيع الاجتماع ، فالباب الأول يقابل مقدمة علم الاجتماع أو الاجتماع العام ، والباب الثاني يقابل أصول المدنية الانسانية ، والباب الثالث يقابل الاجتماع السياسي ، والرابع يقابل المورفولوجيا الاجتماعية أو دراسة التركيب الجمعي ، والباب الخامس يقابل الاجتماع الاقتصادي ، والسادس يقابل

الاجتماع القضائي واللغوي والديني والتربوي . ومن هنا يتبين أن ابن خلدون قد استوعب في مقدمته كل أنواع البحوث الاجتماعية عامة كانت أو خاصة ؛ فهو قد تكلم عن النظم الاجتماعية متتبعا للمجتمع بالدرس والتحليل في جميع أطواره منذ نشأته وبدأوته الى استقراره وانتظامه في المصر والدولة ، وتردده بين القوة والضعف والقوة والكهولة والنهوض والسقوط ، واستقصى خلال ذلك أحوال هذا المجتمع وخواصه وعناصر تكوينه وتنظيمه من الفرد والجماعة الى السلطان والدولة ، وما يعرض لهذه العناصر في حياتها الخاصة والعامة من الظروف والأحوال ، وما يقتضيه سلامة هذا المجتمع ، وما يؤذن بفساده وانحلاله ؛ وتكلم أيضا عن الاجتماع العائلي والاجتماع الاقتصادي والاجتماع القضائي والاجتماع اللغوي والاجتماع الأخلاقي والاجتماع السياسي . هذا ما نجده في مقدمة ابن خلدون وهو شاهد عدل ضد هؤلاء الذين ينسبون علم الاجتماع الى كونت . فمن إذا غضضنا النظر عن دور كهيم واعتبرناه كباعث لآراء كونت ولدراسته لا أكثر ولا أقل ، استطعنا أن نعطي لابن خلدون الأولوية بفعل الزمن . هذا ومن الظلم أن نهضم حق دور كهيم في تكملة بحوث كونت ، فكونت أهم ما ينسب اليه هو تأسيسه علم الاجتماع ، ولكنا لا نجد هذه هذه التقسيم الواضح لمواضيع الاجتماع . فابن خلدون إذن قد فعل مثل ما فعل الباحثان الغربيان ، والسبق له بفعل الزمن .

وقد قسم كونت شعب علم الاجتماع الى شعبتين : شعبة الستاتيك سوسيال وتدرس العناصر التي يتألف منها المجتمع والوظائف والدعائم التي تقوم عليها هذه الوظائف والعلاقات بينها ، والديناميك سوسيال وتدرس التطور الانساني وتبحث عن القوانين الخاضعة لها الظواهر الاجتماعية في المجتمع الانساني في تطوره . ومن الحق أن نقول إن كونت في دراسته لهاتين الشعبتين قد تأثر بالدراسات السابقة ، ففلسفة التاريخ قد مهدت لشعبة الديناميك ، والدراسات الخاصة مهدت لشعبة الستاتيك ، ولكن يمكننا أن نقول إن ابن خلدون لم تساعد الدراسات التي قبله كثيرا ، بل يعد الخالق لهذا العلم الجليل الذي أتى به .

وقد عني كونت بشعبة الديناميك أكثر من عنايته بشعبة الستاتيك ، فاستخلص من دراسته فيها قانونه العام ، قانون الأحوال الثلاثة ، الذي ينص على أن كل فرع

من فروع المعرفة يحاز مراحل ثلاث : المرحلة الدينية ، والمرحلة الميتافيزيقية ، والمرحلة الوضعية : ورتب العلوم بمقدار أسبقيتها إلى الوصول إلى المرحلة الوضعية فرأى أن أولها هي العلوم الرياضية وآخرها هو علم الاجتماع . على أن هذا القانون ليس مطرداً في جميع الأحوال ، فهناك علوم لم تمر بالمراحل الثلاث بل انتقلت تَوّاً من المرحلة الدينية إلى المرحلة الوضعية . وهناك بعض الحقائق لم يفكر فيها إلا تفكيراً علياً ، كما أن هناك أناساً في المجتمع الواحد يفكرون تفكيراً دينياً وغيرهم يفكرون تفكيراً ميتافيزيقياً ، وآخرون يفكرون تفكيراً علياً . فقانون كونت إذن قانون فاسد . ولم ينس كل من ابن خلدون وكونت أن يتكلموا عن العوامل المؤثرة في الظواهر الاجتماعية بُصدد كلامهم عن مواضيع علم الاجتماع . وأهم العوامل التي ذكرها ابن خلدون هما العاملان الديني والجغرافي ، وقد بالغ ابن خلدون في أهمية العامل الجغرافي ونسب إليه أموراً كثيرة تتعلق بتغير الظواهر وتطورها ، وباجملة كل ما يحدث في المجتمع . أما كونت فعنده ما يقرب من أربع عوامل مؤثرة : هي الأفكار الدائنة والأخلاق والظواهر الاجتماعية والإنسان ، وهنا نلاحظ أن كونت قد قال بتدخل الإنسان في الظواهر الاجتماعية ، إلا أنه أسرع وحدد مجال هذا التدخل فقال : إن أقصى ما يحدثه الإنسان هو تقصير أمد مرحلة من مراحل قانون الأطوار الثلاثة .

خاتمة :

والآن وعلى ضوء ما ذكرنا ، ألا نستطيع أن نحدد مكان كل من ابن خلدون وأوجيست كونت بصدد علم الاجتماع ؟ إن الحق أبلج وضاح ، فلا يستطيع منصف أن يقول إن كونت هو مؤسس علم الاجتماع ، فقد سبقه ابن خلدون قبل ذلك بخمسة قرون ؛ ولكن من الحق أيضاً أن نقول إن كونت هو مؤسس علم الاجتماع الذي أخذته مدرسة دوركهم وتوسعت فيه ، لأننا لم نستطع حتى الآن أن نثبت أن هناك همزة وصل بين ابن خلدون وكونت ، وأن فيلسوف الأفرنج قد اطلع على ما خلفه فيلسوف العرب ، فكما نشأ ابن خلدون في بيئة لم تقو على فهم علمه وطوحت به أعاصير السياسة في مشارق الأرض ومغاربها ، فإنه أيضاً لم يجد من الخلف من يتابعه وينمي دراسته أو على الأقل من يرددها ، بل بقي علمه

حيرة العالم

وموقف رجال الدين

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ أبو الوفا المراغي
مدير دار الكتب الأزهرية

تحتاج العالم منذ زمن قريب موجهة من الفلق الفكري والخلق والاقتصادى ،
تنفاهم شدتها شيئا فشيئا ، وتنذر مظاهرها بأسوأ العواقب : ويجهد رجال الفكر
ورجال السياسة ورجال الحرب أنفسهم فى وقاية الشعوب شرور هذه العواقب ؛
وأنى قلب المرء طرفه ، وأى شعب استعرض أحواله ، ألقى مشاكلا يأخذ بعضها
برقاب بعض ، كلما حلت منها مشكلة برزت مشكلة أشد استعصاء على الحل من
سوابقها . فمجموع الطوائف فى أكثر الشعوب تشكو الحظ وتشد الإنصاف :
فطوائف الموظفين تشكو قلة الرواتب والمعجز عن مواجهة تكاليف المعيشة :
وطوائف العمال تشكو قلة الأجور وتنامس التقريب بينها وبين غيرها من

مطويا إلى أن قدر الله له الذبوع ، وهو فى هذا يشبه كونت الذى لم يجد من الخائف
أيضا من يتابعه إلى أن ظهر دور كهيم ، إلا أن الفترة التى انقضت بعده كانت
أكثر بكثير من الفترة التى انقضت بعد ابن خلدون .

على أننا نرى أن العالم الشرقى وإن سبق العالم الغربى بالزمن ، فقد سبقه أيضا
فى مقدار شمول علمه وإحاطته بكل التفاصيل ، فجهوده يوضع فى كفة ، ويوضع
فى الكفة الأخرى مجهود كونت والمدرسة الاجتماعية ، وأنه كان أجرا من كونت
فى قوله بأن الظواهر الاجتماعية تخضع لقوانين ثابتة مطردة لا تقل عن
القوانين الطبيعية ؟

الطوائف في مستوى الحياة ، وترنو بعيون البغض والضغينة إلى أصحاب رموس الأموال : وطوائف الفلاحين في بعض الشعوب ترى أنها دون غيرها قد اقتصت بالظلم وتخلفت عن ركب الزمان ، أجرا وتعلما وصحة ومكانا : وطوائف الطلاب يسبقون الزمان ويرون أنهم أقدر على حمل الرسالات في الأمم من الكهول والشيوخ . ويشورون على التقاليد في سائر الشئون ، منبئين إلى ذلك بقوة الشباب ، وبالإيجاء الداخلي تارة والخارجي تارة أخرى : ويطمع بعض هذه الطوائف فيما في أيدي الطوائف الأخرى مما أذنم الله به عليها ، من غير وجه المشروع .

ولهذه الطوائف مطالب لا تنتهي ولا تقف عند حد ، وكثير منها يستعصى على الحل والتفيد ، ولكنها مع ذلك تصر عليه وتلتمس إلى تحقيقه وسائل لا يفضل بعضها بعضاً إلا في العراية وقوة الابتكار . فإضراب عن العمل ، وإضراب عن الطعام ، واعتصام بالأماكن ، إلى أمثال هذه الوسائل التي تلتقي جميعاً في البعد عن الإقناع ، وعن مواطن الرشاد .



كذلك يشكو أكثر الشعوب اختلال الموازين الخلقية ، ومغايرة الرذائل فيها للفضائل : فرقابة الآباء أبناءهم رجعية ، وتورد الأبناء وعنادهم حرية ، والخروج على الأساتذة والمعلمين ديمقراطية ، وتبرج النساء مدنية ، وتصونهم واحتشامهم رق وعبودية ، والتفاؤل لباقة ، والنبات على المبدأ جمود وصلابة ، والرحمة جبن ، والتسامح عجز ، والسخاء خرق ، والشح حزم ، والغش في الصناعة والتجارة مهارة ، والصدق والأمانة خيبة وخسارة ، والعمل بالتقاليد غفلة عن مقتضيات الرقي والتقدم ، والدستور الخلق الشائع إنما هو الثورة على الماضي والخضوع لسلطان الهوى والمصلحة : فعلى أي وجه هو بيت فافعل ، وأنى تحققت مصلحتك فاغتنم فرصتك ، لا تبالي خلقا ، ولا تراقب أحدا .

من راقب الناس مات هماً وفاز باللذة الجسور

وعلى هذا النحو من الاضطراب في الأخلاق تشكو الشعوب الاضطراب في الأفكار ، والخيرة في غمرات المذاهب المتجددة : ففي كل منها شيع وأحزاب ومذاهب وآراء ، يناقض بعضها بعضاً ، ويتهم بعضها بعضاً ، ليس من ههنا أن تصلح

الشعوب ، وإنما همها أن تظفر وتسود ، وتشكر بحرية الشباب بعلوم الفلسفة والأخلاق والعلوم النظرية عامة ، ويرون أن العلوم الجديرة بالدرس والبحث وأن توجه إليها أفكار الشباب وعزائم الأمم ، إنما هي العلوم التي تصل بها الشعوب إلى غاياتها المادية : من غلب وفتح وبطش واستعمار ، وما عدا هذه العلوم فسفطات من مخلفات الماضي شغل بها العلماء أوقات فراغهم فحسب . هكذا كان حال الشعوب إلى ما قبل الحرب الأخيرة . وظلت تسير من سيء إلى أسوأ حتى جاءت هذه الحرب فزادتها سوءا بما خلفته من آثار ازداد بها العالم شقاء وبلاء ، إذ تركت كثيرا منها فريسة للفقر والجوع والمرض ، وللبيدات الهدامة التي تبلبل الأفكار وتدعها نهبا للأوهام والآلام : وأصبحت الجماعات والشعوب تعاني من تلك الأحوال وتفقد الأمن والاستقرار ، ولكن دون جدوى ولا طائل .

فأصبحت من ليلي الغداة كتمايض على الماء خاقته فروج الأصابع

وأخذ الساسة ورجال الحرب أنفسهم بعلاج هذه الحال ، وإعادة الأمن والاطمئنان إلى قلوب الشعوب ، فأنهم التوفيق وفشلوا في هذه المهمة برغم ما بذلوا من الوقت والجهد ، وما أتوا من غرائب القوانين والمبادئ : لأن باعثهم إلى ذلك باعث ذاتي تلميه عليهم مصالح دولهم وحاجاتها . ومحال أن ينجح هؤلاء في مساعدتهم ما داموا يصدرون عن هذا الباعث .

وستظل الشعوب تتقلب على جمر القلق والفوضى ، ما ظل رجال السياسة يتولون قيادتها : ولن يستقر لها قرار ولن تعم بأمن وسلام إلا إذا تخلى هؤلاء الساسة عن مكان القيادة وأسلموه إلى من هم أقدر عليها منهم ، وهم رجال الدين : فرجال الدين بالدين أقدر على قيادة الشعوب من هؤلاء ، وقد عاشت الشعوب في ظلال هذه القيادة قرونا طويلة مطمئنة رخيئة البال ناعمة العيش منذ جاءت الأديان ، وهذا كانت الأديان مهيمنة على عقائد الناس وأعمالهم .

وما تحولت حالها ونزل الشقاء بها إلا منذ نادى في الشعوب نذرا السوء بأن رقابة الأديان أصبحت لا تلائم هذا العصر وتحول دون تقدم الشعوب ، وظهرت نظرية فصل الدين عن الدولة ، وعمل بهذه النظرية بمض الشعوب ، وما عمل بها شعب إلا ارتكس

في حماة الفوضى، وورد موارد الشقاء، مهما توافرت له أسباب الحياة المادية من مال وعلم وجاه وسلطان؛ لأن السعادة ليست في هذه وما يتعلق بها، ولكنها الرضى النفسى والاستقرار الروحى؛ وكم من غنى قوى تجمعت له أسباب الثروة والجاه ولكنه ظل شقيا قاق النفس مضطرب الحس كالسفينة في مضطرب الأمواج. وإنما قلت إن رجال الدين بالدين أقدر على قيادة الشعوب وتحقيق سيادتها من رجال السياسة؛ لأن رجال الدين يقودونها بما جاء به الدين، والشعوب بشعورها الفطرى بالتدين وحاجاتها الفطرية إليه، أسرع استجابة لهؤلاء من أولئك. وما جاءت الأديان إلا لإسعاد الشعوب وهمائها. جاءت الأديان بأصول العقائد والأخلاق والآداب والعبادات والمعاملات، لتطهر الأنفس، وتطهر الجماعات. وتربط الأفراد بعضهم ببعض، وتربط الجماعات بعضهم ببعض، وإن اختلفت أديانهم برباط المحبة والإخاء. لا يطمع قوى في ضعف، ولا يبنى حاكم على محكوم. ولا يفضل جنس جنسا، ولا يسود لون لونا؛ يسير الجميع في ظلال هذه التعاليم إلى غايتهم التي أرادها الله لهم، والدين مستقر السكينة، وملجأ الضمائر، به يرضى كل بما قسم له، وبه يدأب عاملا حتى يبلغ الغاية من عمله، وبه تخضع النفوس إلى أحكام السنن العامة في الكون، وبه ينظر الإنسان إلى من فوقه في العلم والفضيلة، وإلى من دونه في المسال والجاه، اتباعا لما وردت به الأوامر الإلهية.

قد يسخر من هذا القول بعض الناس، وليس غريبا أن يسخر في هذا العصر الذى دان فيه الناس بأديان من الهوى والمادة؛ أن يسخر بعض الناس بالدين ومن يتكلم بالدين؛ ولكن ما لنا وللسخرية الأغبياء الجهلاء! وهناك من رجال الفكر والسياسة ممن يعتقد بهم من يرى هذا رأى ويدعو إلى ما ندعو إليه. خطب زعيم من أشهر زعماء الغرب وأبرزهم شخصية في مناسبة من المناسبات فقال: لا بد من الرجوع إلى الكنيسة. ومن قبل ذلك دعا إلى هذا كبار رجال الأديان في العالم.

لقد أسرف العالم، وبخاصة الطغتمات التي تسمى مستنيرة، في سخط الله، وأتوا بأعظم الجرائم وأشنع المنكرات، فوكلهم الله إلى أنفسهم، ففرقوا في بلج من الحيرة والآلام الجسدية والنفسية، ولم يشفهم بمعام فيه غرائب العلوم ومعجائب

الاستكشافات . بل لقد زادتهم حيرة وملأت حياتهم غما وهما . وليس ينجيهم إلا أن يعودوا إلى ربهم ، وأن يسترضوه عسى أن يرضى عنهم . ولن يرضى عنهم إلا إذا غيروا ما هم عليه بما ينكره الدين ، بما يعرفه الدين ويرضى عنه الله : . إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم : « ما أنكرتم من زمانكم فيما غيرتم من أحوالكم » . ويقول العلامة محمد عبده : أرشدنا سبحانه في محكم آياته إلى أن الأمم ما سقطت من عرش عزها ، ولا بادت ومحى اسمها من لوح الوجود ، إلا بعد نكوبها عن تلك السنة التي سنّها الله على أساس الحكمة البالغة : إن الله لا يغير ما يقوم من عزة وسلطان ورفاهة وخفض وأمن وراحة . حتى يغير أولئك القوم ما بأنفسهم من نور العقل وصحة الفكر وإشراق البصيرة . والاعتبار بأفعال الله في الأمم السابقة ، والتدبر في أحوال الذين حادوا عن صراط الله فهلكوا وحل بهم الدمار . ثم لعدوهم عن سنة العدل وخروجهم عن طريق البصيرة والحكمة : وحادوا عن الاستقامة في الرأي ، والصدق في القول ، والسلامة في الصدر ، والعفة في الشهوة ، والحية على الحق ، والقيام بنصره ، والتعاون على حمايته . خذلوا العدل ولم يجمعوا همهم على إعلاء كلمته ، وآتبعوا الأهواء الباطلة وانكبوا على الشهوات الفانية ، وأتوا عظام المنكرات . خارت عزائمهم فشعوا يذل مهجهم في حفظ السنن العادلة ، واختاروا الحياة في الباطل على الموت في نصره الحق ، فأخذهم الله بذنوبهم . وجعلهم عبرة للمعتبرين .

من شعر الخلفاء الراشدين

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوم فتح مكة :

ألم تر أن الله أظهر دينه	على كل دين قبل ذلك حائد
وأسلبه من أهل مكة بعدما	تداعوا إلى غي من الأمر فاسد
غداة أجال الخيل في عرصات	مسومة بين الزبير وخالد
فأمسى رسول الله قد عز نصره	وأمسى عداه من قتيل وشارد

حول آى الكتاب والسنة

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود النواوى
المدرس بمعهد القاهرة الثانوى

« ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألدّ الخصام » .

قلّ أن تلقى من أهل زمانك من خلا من الملق والرياء .

يلقاك يحلف أنه بك واثق وإذا توارى عنك فهو العقرب

أولئك هم الضعفاء الوضعاء الذين لا يجدون من قوة الشخصية ما يخول لهم أن يواجهوا بالحقائق ، ولا يأنسون من أنفسهم إيماناً ببارئ المسموكات أن يأرزوا^(١) إلى كمفه ويلجئوا إلى كمفه . وهؤلاء هم الذين يصفهم الذكر الحكيم معيراً ومننداً : « وإذا جاءوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور . إن تمسكم حسنة نسوهم ، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها ، وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً ، إن الله بما يعملون محيط » . ويقضى فيهم رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وآله بأنهم شرار الناس فيقول : « تجدون شر الناس ذا الوجهين الذى يلقى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه » . ترى كثيراً منهم قد منحه الله ثقافة فى الفكر ووهب له ذلاقة فى المنطق ، من الذين قال فيهم سيدنا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : « إن أبغضكم إلى وأبعدكم منى بحالس يوم القيامة الثرثارون المتفيهقون » . ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون » .

وما أشد خطورة هذا النوع من الناس على المجتمع ، إن أخوف ما أخاف على أمتى كل منافق عليم ، ! قالوا : يا رسول الله ، كيف يكون منافقاً عليم ؟

قال : « عليم اللسان جاهل القلب والعمل ، . ولقد صدق صلوات الله وسلامه عليه : فإن هؤلاء هم الذين اتتمنوا نخانوا ، واطمأن الناس إليهم في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم فكانوا الذئاب العاتية . على أن أمثالهم جديرون أن يظمروا للناس على كنههم ، وأن تتجلى حقيقتهم على وجوها ، وإنها « إن تلك مثقال حبة من خردل فتسكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله » .

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم
رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا ، فإن على قلوبهم ما كانوا يكسبون .
وأخطأهم التوفيق فيما يأتون وما يدعون . فتنة في الأرض وفساد كبير : أن تظهر في حال يعلم الله خلافها منك ، وأن تكون ذا وجهين فيمن عرفته .

هي والله قلوب خاوية ضعفا وهلعا ، خالية من كل إيمان وحكمة ، هاروية في الدرك الأسفل من الرذيلة : قلوب أولئك الذين لا يستطيعون أن يواجهوا بحقيقة لدى جمول أنوك ، لم يذق حلاوة الحق ، ولم يبال ألا يكون على صراط مستقيم .
رحمك الله يا ابن الخطاب ! لقد صممت قواعد الرجولة في جماعة محمد حتى فغرت الأفواه بكلمة الحق تسمعها من المرأة المسكينة راضيا مغتبطا ، بل متهللا مستبشرا : تقول لك في محفل العلية من أمة محمد : إن الله يقول غير ما تقول يا عمر ، وتجيها بقولك : الحمد لله الذي جعل في الرعية من يرد عمر إلى صوابه . وتدوى بها صارخة لترجم بها الشيطان وتذكذك صرح العنجية الجاهلية : أيها الناس ! أخطأ عمرو وأصاب امرأة . رحم الله امرأ أهدي إلى عيوب نفسي . وتدب إلى مهبط السرائر في نفوس المسلمين ، لينزل كل جبار عن جبروته أمام الحق ، وما كنت إلا نصيره وأسيره . ولينكر كل إذى أثره مهما ارتفع ذاته وأثرته . ليس عمر بأكبر من أن ينصح ولا بأصغر من أن ينصح . تلك هي النفس التي لفحت بحكمة الاسلام . وهذبت بريضة القرآن ، لا هم لها إلا أن تقيل الانسانية من عثارها وتصلها بملكوت السماء . وهذه هي خلافة الله في الأرض ، ترفع العدل وتخفض القسط .

يأبى قومى يعلمون أنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها ، فيقيثوا إلى رشدهم ، ويلتمسوا العزة والسؤدد في سيرة سلفهم . ولا ينسوا تلك المجادة القعساء . فأما الرئيس « الراعى » فينشد الخير العام متجافيا عن الغرور والغطرسة ، يسمع النقد ويقبل النصيح ، وينكر الغش ، ويرفض المدح ، إلا ما أعان على خير ، أو وجه إلى رشد ، ما يزيده شئ من ذلك إلا ارتفاع شأن . ولا يرى المنصب منه إلا كل قوة وسلطان : ولعمرك الله ما أفلح قوم ضاع الحق بينهم ، وآثروا من ليس عند القسطاس بأثير . وأما المرموس فيذكر دائما أنه عون أمين لراعيه ، فهو مسئول عن كل ما يشاركه فيه ، وأنه إذا رآه في ظلم فواجبه تقويمه ، وأنه إلى إرشاده أحوج منه إلى مدحه وإطرائه . فالذكرى تنفع المؤمنين . . . إذا رأت أمتي الظالم فلم تأخذ على يده أو شك أن يعم الله الكل بعذابه . . . واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب . .

ألا قبح الله أولئك الذين يمالئون على الضلال . ويزكون أفعال الجهاك ، لأن لهم سطوة وقوة ، وفيهم نزوة ونبوة ، كأنما تتغلى عنهم رحمة الله إذا سخطوا ، وتصيهم قارعة أو تحل قريبا من عازهم إذا ما تسكروا . . إن ولي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين . والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسم ينصرون . .

ألا قبح الله أولئك المادحين القادحين ، الذين « اتخذوا أيمانهم فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون . . . وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مستندة يحسبون كل صيحة عليهم ، هم العدو فاحذرهم ، قاتلهم الله أنى يؤفكون . إن الله سبحانه يوجهنا وجهة القوة ويدعونا بدعاية الكرامة . من كان يريد العزة فلله العزة جميعا . .

يريد الله سبحانه ليدعم فينا الثبات في الأمر . والعزيمة على الرشد . والتفاني في نشدان الحق حيثما كان وعند من كان : . كونوا قسوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شأن قوم على ألا تعدلوا ، استوى في ذلك الصغير والكبير ، والأمر والمأمور ، لا تفرقة أمام محكمة البصائر الثاقبة . ورحم الله أمير الشعراء إذ يقول فيما يصف به حكومة الاسلام وصاحبها صلى الله عليه وسلم :

ورسمت بعدك للعباد حكومة
لا سوقة فيها ولا أمراء
الله فوق الكل فيها وحده
والكل تحت لوائه أكفاء
والدين يسر والخلافة بيعة
والأمر شورى والحقوق قضاء

فما بال هذا الذي يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويلبس للناس مسوح الرهبان ،
أبعد ما يكون من قداسة الأديان ؟ يا قومنا إن للدنيا سيلاً وللآخرة سيلاً . وإن
من سوء التقدير أن تخطئوا . إن مارسه ربك لتعامل به معه فلا يحمل بك أن
تجعله سلعة رخيصة بين عباده . إن الله أغنى الأغنياء عن الشرك ، وإنه غيور ، ولا
أحد أغير منه . . فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة
ربه أحداً . .

تالله ما رثيت لشيء رثائي لأولئك الدُّسَر الذين يتقلبون في المجالس
يخوضون في الباطل ويترددون على شتى المحافل يحملون ألفاظاً قد حبروها
ليشتروا بها عطف الرؤساء فيظفروا بهم ، ويعدو بهم طورهم بخساً لأصحاب
الحقوق ، وإضاعة لذوى الكفايات من العاملين . لقد خسر البائع وخسر المشتري !
« أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين . .
الاخلاص لوجه الله ولواجب المجتمع هو الطريق الوسطى والجادة التي يتفاوت
الناس في سلوكها . . فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً
يرده . . ولكنه طريق وعر ، ومركب صعب لا يمتطيه إلا من وهب له الله سبحانه
قوة النفس ، وصحة الطبع ، وإيثار الجسد ، وهيئات ذلك إلا أن يوفق الله من شاء
من عباده .

تالله إن أمة لن تبلغ الذروة وتنب إلى القمة حتى يكون مقياس الدرجات
والمنازل فيها الكفايات والأعمال التي تنفع المجتمع ، وترفع من شأن الوطن .
أما أن يكون الميزان أن تتعرف إلى كبير فيختصك ويصطفيك ، أو تلتمس شفيعاً
فتذل له نفسك وتريق على بابه كرامتك ، فما شيء أشد فتكاً بكيان الأمم ولا أعمل
في تقويض أركانها منه ، فانه مقبرة الكفايات ، ومزرعة الهمم والمنافسات . لقد مسخ
التفكير ، وشاهت الحقائق ، وعميت الأبصار والبصائر ، وعند الله المخرج والمنجى .

يأبىها الناس إن خزائن الله لا تنفذ ، وأبوابه لا تغلق ، وإنه لن يصيب نفساً إلا ما كتب الله لها في رزقها وأجلها : فاتقوا الله وأجملوا في الطلب . نافسوا في المكارم لا في عرض الدنيا الحقير ، خذوا أنفسكم بكرامة الإسلام ، وبعزة الإيمان ، من حارب الله في عباده يبغي أو استهانة حربه الله ، إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ، فليسمعهم منكم بسطة الوجه ، وحسن الخلق ، وإيصال الحق إلى صاحبه . ارحموا الإنسانية المتهمضة يسلم دولاب العمل لخدمة الجماعة ولخدمة الفرد .

وأنت يا صاحب الحاجات المعذب ، ويا من تفتى نفسك في مطالب الحياة : أرح نفسك ولذ بركن الله الركين ، واعمر قلبك بالإيمان والرضا ، دع كل أمر في وضعه الطبيعي ، فلا تسرف في المزاحمة على عرض الدنيا ، ولا تستهدف فيها الخصومات لا قبل لك بها . واعلم أن من ضاق عليه الحق فالباطل عليه أضيق ، واذكر أنه « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده ، وهو العزيز الحكيم » ، ونفسك أكرمها فانك إن تهين نفسك عليك فلن تافى لها الدهر مكرماً

إن الثروة الحق في الخلق الكريم والقلب السليم ، والنفس الرضية المطمئنة ، والخلو من التطاحن المزرى ، والتشاحن المقيت الذى يظهر الإنسان في مظهر الخنزير حرصاً واستماته .

إن القلب السليم هو ذلك القلب الخير ، بفسح الطريق لسالكها ، ومعاونة الإنسانية في كل ما يلابسها : هو ذلك الذى يسير بالقسطاس المستقيم ، ولا يرسف في قيود من تعصب أو محاباة . من يسير الرفق حيث يسير ، وينشر الأمن والبشر والبر والخصب ألويته حيث ينزل ، ذلك المعتر بالله المتوكل عليه ، الذى يرى أن الخير كله في يديه ، فلا يقول إلا حقاً ، ولا ينطق إلا صدقاً . ولا يصدر إلا عن رجولة أى رجولة .

أيها المادح العباد لتعطى إن الله ما بأيدي العباد
لا تقل في الجبان ما ليس فيه وتسم البخیل باسم الجواد

بَابُ الْأَسْئَلَةِ وَالْفَتْوَى

نقل المسجد

جاء إلى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتي :

مسجد جمعية إحياء المساجد بشبرا اشترينا أرضه بمال مأخوذ من
الاكتتابات ، ونوينا في الشراء أن تكون الأرض مسجدا ، وكانت الأبنية مقامة
عليها قبل الشراء ، والشعائر قائمة ، لأنها كانت مستأجرة من صاحبها بهذا القصد .
وقد اعترض بعض المؤسسين على موقع المسجد لأنه في شارع ضيق جدا ، ولأن
مساحته ضيقة ، وأبدى رغبته في إقامة المسجد في مكان يكون قريبا من الشارع
المتسع . وأما قد رأيت فتوى من لجنة الفتوى مأخوذة من كلام ابن تيمية مفادها
أنه يجوز نقل المسجد على أن يجعل المكان الأول من صالح المسجد . فيستأجر
مثلا لتكون غلته للمسجد . وهذه الفتوى لا تنفعنا إلا قليلا لأننا نريد أن نبيع
الأرض والبناء وتصبح ملكا حرا لمن يشتريها ، ونشتري بثمنها مع ما نجمعه من
الاكتتابات أرضا بالمكان القريب المتسع ، ونبنى عليها مسجدا متسعا . فهل هناك
رأي يجاوز ذلك ؟ نرجو الإفادة .

على حسن البوالات

الجواب :

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، سيدنا محمد وعلى
آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان يوم الدين .

أما بعد . فتفيد اللجنة بأنه إذا كانت إقامة المسجد على القطعة المراد شرائها
خيرا وأصلح من المكان المراد بيعه ، جاز بيع هذا المكان وشراء ما يراد شرائه
بثمنه مع ما ينبرع به ليكون مسجدا بدله . وذلك بواسطة المحكمة الشرعية المختصة
إذا كان المكان الأول قد جعل مسجدا بالفعل . وهذا على ما ذهب إليه الإمام
أحمد بن حنبل ، واختاره شيخ الإسلام ابن تيمية . وهو ما تختاره اللجنة للفتوى .

رئيس لجنة الفتوى

والله أعلم

عبد المجيد سليم

نواحي الاعجاز

في أخلاق الرسول

لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد شاهين

تخصص الوعظ والإرشاد

روى القاضي عياض في السقاء نقلاً عن الطبري عن علي كرم الله وجهه ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين ، كل ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد من ذلك ، ثم ما هممت بسوء حتى أكرمني الله برسالته : قلت ليلة لفلان كان يرعى معي : لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمر بها كما يسمر الشباب ، فخرجت لذلك حتى جئت أول دار من مكة سمعت عزفاً بالدفوف والمزامير لعرس بعضهم ، فجلست أنظر ، فضرب على أذني فممت ، فما أيقظني إلا مس الشمس ، فرجعت ولم أقض شيئاً ، ثم عراني مرة أخرى مثل ذلك ، ثم لم أهتم بعد ذلك بسوء ، اهـ .

بما وعاه صحيح التاريخ من أمر الرسول وسيرته قبل مبعثه ، أنه عليه السلام كان في تلك المرحلة من حياته يمتاز على أقرانه وأهل بيئته عموماً ، بسلوكه الخاص ، وأخلاقه التي كان بها نسيج وحده . فقد اشتهر عند العرب بالحلم ، والرفق ، والتواضع ، والإخلاص إلى الرزاة والصمت : كما اشتهر بانقباضه التام عن كل ما زخرت به بيئته وانهمك فيه أقرانه من المنازعات ، واللجاجة في الخصومة ، والزهو ، والخيل ، والمفاخرة في المحافل ، وآثر العشيرة ومناقبها وأيامها ، والمكاثرة بما أحرزت من حطام الدنيا ومتاعها ، والمغامرة في تحصيل الغنائم والمتع بشن الغارات وإثارة المعارك ، واللهو بالصيد والقتل ، ولعب الميسر ، ومعاقرة الخمر ، والتشبيب بالنساء . وأثر عنه نفوره الشديد من عوائد قومه وعاداتهم وعمائدكم ، كزجر الطير ، والاستقسام بالأزلام ، والرجوع إلى الكهنة والعرافين عند المشاكل : واشتد ممتنه للأوثان حتى لم يطعم من قرابينها ، ولم يحضر

أعيادها . وقيل إن رجلا استحلفه مرة بالأوثان فغضب وقال : إنه لا يجد أبغض إلى نفسه من هاتيك الحجارة ! فأن كان ولا بد فإنه يخلف بالله .

ولما زادت وحشته من تعاليد قومه وأساليبهم في الحياة ، داخلته حيرة وضيق ، وأخيرا لاذ بالعزلة في غار حراء ، يتأمل ويفكر ، فأنس بذلك واطمأن قلبه . قال ابن القيم في زاد المعاد : « ثم حبب إليه الخلو والتعبد لربه ، وكان يخلو بغار حراء يتعبد فيه الليالي ذوات العدد ، وبُغضت إليه الأوثان ودين قومه ، فلم يكن شيء أبغض إليه من ذلك » .

وروى البخاري عن عائشة رضوان الله عليها : « أول ما بدى به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم : فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبب إليه الخلاء . فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزود لذلك ، حتى جاءه الحق » . وحدثنا صحيح التاريخ أن سلوك الرسول وأخلاقه الفريدة قد استلقت إليه أنظار العرب عامة ، وأهل الرأي منهم خاصة ، فأكبروه وأحبوه ، ولقبوه بالأمين ، واختصوه بمعاملة استثنائية ، فأشركوه مع مشيختهم في مهام الأمور برغم سنه الباكرة ، وتحاكموا إليه فسأج في عهد حلف الفضول لحفظ النظام وتأمين الحجاج .

ولما تنازعت القبائل عند تجديد بناء الكعبة بشأن إعادة الحجر إلى موضعه وكادوا يمتشقون السيوف ، تحاكموا إلى الرسول ، فبسط رداءه ، ووضع عليه الحجر ، ثم أمر كل قبيلة أن تأخذ بطرف ، فرفعوا الحجر ووضعوه الرسول موضعه . وهكذا كانت نباهة شأنه عند قومه بأخلاقه الباهرة ، حتى لقد توسموا فيها برادر شأنه المرتقب . ومستقبله العظيم : فطالما كان عمه أبو طالب يردد هذه الكلمة في زهو وثقه : « ليكون لابني هذا شأن » ، على أنه إذا لم يكن يعلم على وجه التحديد ما هو هذا الشأن المرتقب لابن أخيه لأن بشارت المكتب السماوية بنبوته لم تكن ظاهرة للقرشيين ظهورها لأهل الكتاب ، ولأن البشائر والحوادث التي اقترنت بميلاده لم يظهر مغراها جميعا إلا بعد البعثة . فإن أبا طالب قد عاين في فتاه محمد طرازا فريدا من الشخصية لا عهد له بمثله عند أمثاله من شبيبة الجليل ،

فتوقع له شأنا ومجدا في مستقبل حياته . ولقد صدق فراسة أبي طالب الراهب بحيرا عندما التقى به محمد وعمه في طريقهما إلى الشام بالتجارة .

وعلى الجملة فإن أخلاق الرسول كانت في نظر المعاصرين له من أشراط مجده وإرهاص نبوته قبل بعثته ، كما كانت بعدها من معجزاته الباهرة التي ألفت حوله القلوب . وآمن بسببها بعض من آمن به ، وأشار بها خصومه الالدام .

عن حابر بن عبد الله رضى الله عنه : « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بذات الرقاع فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء رجل من المشركين وسيف رسول الله صلى الله عليه وسلم معلق بالشجرة فاخترطه فقال : تخافني ؟ قال : لا ، قال : فمن يمنعك مني ؟ قال : الله . »

وفي الشفاء للقاضي عياض . وفي صحيح أبي بكر الأسماعيلي : فقال : ومن يمنعك مني ؟ قال : الله . فسقط السيف من يده . فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم السيف فقال : من يمنعك مني ؟ فقال : كن خير آخذ . فقال : تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ؟ فقال : لا ، ولكن أعاهدك ألا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك . فخلى سبيله . فأتى أصحابه فقال : يا أيها الناس ! وفى رواية القاضي أن الأعرابي هو غورث بن الحارث .

وقال فى الشفاء : « وجاءه زيد بن سعدة قبل إسلامه يتقاضاه ديناً عليه فحبذ ثوبه عن منكبه وأخذ بمجامع ثيابه وأغلظ له . ثم قال : إنكم يا بني عبد المطلب مطلق . فأنهره عمر ، وشدد له فى القول ، والنبي صلى الله عليه وسلم يتبسم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا وهو كنا إلى غير هذا منك أخرج يا عمر : تأمرنى بحسن القضاء . وتأمره بحسن التقاضى . » ثم قال : لقد بقى من أجله ثلاث ، وأمر عمر أن يقضيه ماله ويزيده عشرين صاعاً لما روثه ، فكان سبب إسلامه . وذلك أنه كان يقول : ما بقى من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها فى محمد إلا اثنتين لم أخبرهما : يسبق حلمه جهله ، ولا تزيده شدة الجهل إلا حلماً ، وكذلك كانت عظمة الرسول الخلفية شاهد صدق بعظمته وصحة دعوته عند المعاصرين له قبل البعثة وبعدها . وبها أشاد العدو والصديق ، وألهمت الشعراء فتجاوبوا بها فى الآفاق وتغنوا بها فى المحافل .

العصر العظيم

تعريب الأستاذ عمر طلعت زهران

— ٢ —

وعلينا ، لكي نفهم هذه النعالم أن نرجع إلى مصادرنا ، وهنا نجد صعوبات جمة . وقد يكون سبب هذه الصعوبات ندرة هذه المصادر كما هو الحال مع فيثاغوراس ، فلم يبق من كتاباته سطر واحد . هذا إذا تسكلمنا عن كتاباته التي يختلف الباحثون فيها ، فيما إذا كان قد كُتب شيء على الإطلاق . وقد فقدت كتابات تلاميذه ، أيضا ، وأول المصادر المكتوبة عنه كانت مراجع لمؤلفين آخرين لا ينتمون إلى الفيثاغورية ، يبتدون بالمؤرخين مثل : هيرودوت وديودورس ، وفلاسفة مثل : أفلاطون وأرسطو ، . أما أدق الأخبار عنهم فيمكن أن توجد فقط في مؤلفات الكتاب الأفلوطينيين ، يامبيخوس وبورفيروس ، أو في مؤلفات ، ديوجين ، . وعلينا أن نتذكر أن هذه الكتابات قد وضعت بعد موت فيثاغوراس بنحو سبعة أو ثمانية قرون ، ويجب أن نكون على أشد الحذر حين نأخذ من هذه المصادر المشككة غير المعتمد عليها .

أما الصعوبات التي تعترض مصادر البوذية فهي صعوبات جمة مختلفة إذ هي على عكس الصعوبات الأولى . فإن على الباحث أن يناضل لا ضد

وفي العصر العباسي عني بدرس أخلاق الرسول بعض العلماء المحققين ، فكشفوا بمنطق البحث الدقيق ناحية رائعة من الإعجاز في خلق الرسول على نحو ارتضاه علما من أعلام النهضة العباسية ، هما الجاحظ من المعتزلة ، والغزالي من الأشعرية ، كما سيتضح لك بعد .

والآن ما عسى أن يكون موقف الباحث الحر في العصر الحديث حين يعرض بالبحث والتحليل للجانب الخلق من السيرة النبوية في ضوء العلم المجرد والمنطق المحايد ؛ ترى هل يرى رأى أولئك الأوائل في اعتبار أخلاق الرسول من معجزاته الواضحة ، أم له رأى آخر ؟ سوف نرى .

ندرة المصادر ، بل ضد كثرتها وتعددتها . فانه يوجد على العموم ثلاثة أو أربعة أنواع من الكتابات البوذية : الكتابة البالية ، والسسكريتية ، والصينية ، والكتابة اللامية بالتبت . وأقصر هذه الكتابات وأهمها هي الكتابة البالية عن البوذية الجنوبية ، وهي مع قصرها تبلغ ثلاثة أضعاف حجم الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد . أما السسكريتية فأكثر طولاً . وتشمل الكتابات اللامية بالتبت ١٠٨٣ كتاباً تقع في ١٠٨ مجلداً . ولكنها جميعاً تتضاءل أمام الكتابات الصينية التي تتكون من ١٦٦٢ كتاباً تقع في ٦٧٠٠ مجلد . فمن منا لا يستطيع ألا يضل في متاهات هذه النصوص ، كل واحد منها على حدة ، بله كلها مجتمعة .

أما صعوبات النصوص الزردشتية فانها ذات طبيعة مختلفة عن ذلك : فان هذه النصوص توجد في الزند أفستا ، وهو كتاب الزردشتيين المقدس . وقد بنيت آمال كبيرة على نشر هذا الكتاب ، ولكن ما إن نشرها العالم الفرنسى انكيتيل دوبيرتون ^(١) حتى خابت الآمال . فبدلاً من وعظ موحى به ، وصورة فذة للصراع بين الخير والشر في العالم ، وجد أن الزند أفستا إنما تحتوى على أناشيد وأدعية لا معنى لها ، خالية من الحياة على صورة السحر . ووجدت الخيبة صداها في كلمات المستشرق الانجليزى الكبير سير وليام جونز ، إما أن يكون زردشت لم يكتب هذا الكتاب أبداً ، وإما أن يكون مجرداً من العقل ، وفي كلتا الحالتين لا يستحق هذا الكتاب أن ينشر . وكان سير وليام مغالياً في نقده إذ تمكن الباحثون بعد مجهود كبير من اكتشاف بعض آثار العظمة الروحية السابقة . ولكن هذه الآثار كان يغطيها طبقة كثيفة من الزيادات والتحريفات ، تجمعت على مر العصور ، فجعلت معرفة النص الصحيح مستحيلاً . وعلى الرغم من أى شئ فإن الأثر الذى تركه هؤلاء الحكماء على عقول البشر كان عميقاً حتى إن أشباحهم لتبدو منيرة متميزة خلال ظلام العصور الماضية ، ومن خلال التحريف والتشويه الذى أصاب كتاباتهم .

ويطلق على كنفشيوس دائماً أنه مؤسس الدين الوطنى للدولة الصينية ،

(1) Anquetil Duperron, Zend Avesta, Ouvrage de Zoroastre.
Paris 1771.

ولسكن كلمة دين . هذا يجب أن تقابل بمرض التعفظ ، وعلى أية حال ، فهي لا تعنى أى نوع من العبادة أو إقامة الشعائر لمعبود ما ، فإن معنى . الإله ، كان بعيدا عن الكنفشيوسية . وكل ما نجده هو كلمة . السماء ، تستعمل بمعنى غامض ، وحتى في هذا الصدد يقف كنفشيوس ثابتاً ويقول : . لا تتكلم السماء ، وإنما تتمثل إرادتها في أعمال الناس ، وهذا كل شيء . . أما إذا سئل عن كيفية عبادة الأرواح الخالدة . فإنه يجيب : . إنا لا نعرف كيف نخدم الناس ، فكيف نستطيع أن نعبد الأرواح ؟ . وبفس هذا الأسلوب كان يجيب عن الأسئلة الميتافيزيقية ، أما عن السؤال : ما هو الموت ؟ فإنه يجيب : . إنا لا نعرف ما هي الحياة ، فكيف لنا أن ما هو الموت . .

وبحاجب هذه الواقعية الصرفة التي نراها في آرائه وحاجته . الى الاهتمام بكل أنواع الميتافيزيقا ، فإن منهجه في البحث كان منهجاً عقلياً : التفكير ، فالدراسة ، فالبحث . فلا يوجد به شيء موحى به من أعلى ، ولا شيء يفوق الطبيعة أو يفوق العقل .

وكان مدار البحث في دراساته هو الإنسان نفسه ، وأحيانا الفرد ، يقول الجميع : الامبراطورية . المملكة ، العائلة ، أساس الامبراطورية هو المملكة ، وأساس المملكة هي العائلة ، وأساس العائلة هو الفرد ، ولكن هذه الآراء الفردية نادرة ، فإن كنفشيوس كان جماعيا ، وكان عمله الأساسي هو : وضع علاقات الجماعات ، في العائلة والدولة وفي البشرية . ولنا أن نسأل : في أى اتجاه كان يبحث عن حل المشكلة ؟ ونستطيع أن نجيب دون تردد : في العائلة . فإن العائلة كانت نقطة الابتداء لكل فلسفته الاجتماعية والسياسية ، ويروى لنا مؤرخو حياته أن العظمة والجلال اللذين اكتسفا حفل جناز أمه أدهشا مواطنيه وجعلاه ذائع الصيت ، وأمضى بعد الجناز ثلاثة أيام بحاجب المدفن مخصصاً كل الوقت للتأمل والأعمال الفلسفية ، ومن هنا أነعت نظريته . وينبع من تمجيد العائلة ميله للدراسات التاريخية ، بل وهنا نجد منبع تمسكه بالتقاليد ، أيضا ، إن لم نقل ، المحافظة ، أو الرجعية ، لوصف مثله الأعلى للتحكم الأبوي في العلاقات العائلية وعلاقات الدولة . ومن الطبيعي أن يكون هذا الشعور نفسه هو منبع العناصر التقدمية - إن لم نقل الثورية - في آرائه وتعاليمه . ويجب أن تشمل عناصر العلاقات العائلية علاقات المجتمعات

الكبرى كالدولة والامبراطورية ، بل والانسانية جمعاء . وحين قال أحد أتباعه بأكيا : إنه لا إخوة له ، أجابه كنفشيوس : علينا أن ننظر للناس في العالم كله كأنهم إخوة ، وحيث أن يبكي إنسان لانعدام إخوته . . وأجاب عن سؤال : ما هي الانسانية ؟ بقوله : الحب ، وهو جواب يبدو كأنما هو أمر مسيحي . ولكنه ليس على حذر حتى لا نتخذنا ظواهر الكلمات ، فان نشوة الحب العجيب في خطبة الجبل^(١) كانت بعيدة عن عقل كنفشيوس الحذر الرزين ، المرتبط بأمور الأرض أشد الارتباط . وسئل : هل يجازي الانسان الشر بالخير ؟ فأجاب : « وكيف يجازي إذن عمل الخير ؟ » أما نظريته في السلوك نحو الآخرين ، فقد بينها في القانون الذهبي : « ما لا تحب أن يعاملك به الناس ، لا تعامل به غيرك » . وهي القاعدة الذائعة التي سبق بها كنفشيوس^(٢) كانت ، بخمسة وعشرين قرنا .

وإذا ألح أي إنسان ، على الرغم من أي شيء ، في أن يبحث عما يشير العواطف في مؤسس أي دين ، فانه في حال كنفشيوس يوجد الشعور بالوقار ، والحذر ، والشعور بالتقاليد الدينية من الناحيتين العقلية والعملية ، ومهما كان الأمر ، فانه شعور حقيقي أكد كنفشيوس^(٣) ، ففقد وضع برنامج الإصلاح الاجتماعي والسياسي لتحقيق السعادة للعالم أجمع : « لو قلدني حاكم مقاليد الحكم اثني عشر شهرا لحققت شيئا عظيما ، وفي مدى ثلاث سنوات احقق أغراضى بأجمعها » . وقد اضطر الى ترك إقليسه « لو » ، وجاب الأرض بقية حياته من ولاية إلى أخرى ، يبحث عن الحاكم الذي يقلده مقاليد الحكم . وكان يقابل في أحسن الأحوال باحترام واستقبال غير حار دون وعود ، وأحيانا بجفاء ، بل وبالسجن . ولكنه لم يجد الحاكم الذي يبحث عنه . ولما شعر بدنو أجله قال : « لم يوجد حاكم ذكي يقلدني مقاليد الحكم ، لقد انتهى زمني ! » وهذه آخر كلمات تروى عنه . لقد كان أول وأعظم « عقلي » . هو في نفس الوقت أول ولعله أعظم « دون كيشوت » .^(٤) بأحسن معاني هذه الكلمة .

(١) السيد المسيح .

(٢) بطل القصة التي كتبها بهذا الاسم الكاتب الإسباني المعروف سرفنتيز في القرن

السادس عشر للميلاد . ويعتبر هذا من « إنسان خيالي » أو « حلم متعمس » (للمرب) .

تشابه النظم في القرآن الكريم

لعضيلة الأستاذ عبد الغني عوض الراجحي

في مقالين سابقين كشفت عن أسرار هذه الظاهرة وعن مواقعها في القرآن الكريم .

ولما كانت هذه المواقع يصح أن تسمى « متشابه القرآن » ، وكان للفظ المتشابه إطلاقاً متعددة متشابهة . فإني أحب الآن وفي هذا المقال أن أبين هذه الاطلاقات مع إيضاح الفروق بينها فأقول :

صيغتنا التفاعل والافتعال تأتيان من مادة واحدة لافادة معنى واحد هو التشارك في معنى المسادة . تقول من القتل : اقتتلوا وتقاتلوا ، ومن الخصام : اختصموا وتخاصموا . ومن الشركة : اشتركوا وتشاركوا : ولا يخرج الأمر عن ذلك في قولك : تشابهوا واشتبهوا : فالتشابه والاشتباه ذوا أصل واحد ويفيدان معنى واحداً هو المشاركة بين الأشياء في الأوصاف والكيفيات (١) . وعليه قوله تعالى : « تشابهت قلوبهم » وقوله تعالى : « الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً

(١) من ذلك « ملاك التأويل القاطع لذوى الاتحاد والتعطيل » في توجيه التشابه اللفظي من آي التنزيل « لابن جعفر بن الزبير القرني » و« البرهان في متشابه القرآن » لـ « كرماني » و« كشف المعاني في متشابه المثاني » لبدر الدين بن جماعة ثلاثها رسائل صغيرة مخطوطة ، ثم كتاب « درة التنزيل وغرة التأويل » للخطيب الأسكافي « في متشابه التنزيل » وقول السيوطي في كتابه الاتقان « النوع الثالث والثون في الآيات للشبهات » .

(٢) لا يكر على ذلك كون المادة لا بخصوص هذه الصيغة مفيدة لهذا المعنى كقولهم : أشبه الولد أباه . وقولهم :

أصبح ذبه شبه من أمة . من عظم الرأس ومن خرطمه

مثنى ، وقوله تعالى ، والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه ، وفي آية أخرى ، والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه ، فالاشتباه والتشابه في كل ذلك بمعنى التماثل في الأوصاف والكيفيات ، ولو لم يكن الأمر على ذلك لفسد المعنى وبطل أمر التقابل في قوله تعالى : ، مشتبها وغير متشابه ، .

ولما كانت المماثلة في المميزات من شأنها أن تؤدي إلى الالتباس والخفاء وعجز الذهن عن التمييز بين المتماثلات ، وكلاهما عن التحديق فيها كما قال القائل :

رق الزجاج وراقت الخمر فتشابهها فتشاكل الأمر
فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر

لما كان الأمر كذلك ذهبوا يقولون : المشتبه والمتشابه ، ويريدون الملتبس الخفي أمره ، فيقولون : اشتبهت الأمور ، يعنون أنها التبتت وأشكلت ، ويقولون : اشتبهت القبلة ، يعنون أنها خفيت على من يريد بها لا يدري في أى الجهات هي حتى يصل إليها . وعليه قوله تعالى : « إن البحر تشابه علينا ، وقوله تعالى : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ، .

فإذا كانت آيات القرآن كلها يشبه بعضها بعضا فى الصدق والإعجاز وسمو المعانى ، صح أن يطلق على القرآن كله أنه بهذا المعنى متشابه كما قال تعالى : « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها ، والمتشابه بهذا المعنى لا يقابل بالمحكم ولا يتمتع معه إطلاق المحكم على القرآن كله ، بمعنى إحكام آياته وصيانتها عن كل نقص وبطلان ، وإصابتها المحز فى حسن السبك والنظام ، كما قال تعالى « كتاب أحسنت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، .

وإذا كانت بعض آيات القرآن قد التبتت وعجز الذهن عن إدراك مدلولها والإحاطة بمعناها ، ولم يتمكن العقل البشرى من النهوض بذلك والاستقلال به فقد اصطاح العلماء على أن يطلقوا على ذلك البعض من الآيات أنها بهذا المعنى متشابه القرآن ، وعلى البعض الآخر الذى اتضحت دلالاته وبان المراد منه أنه محكم .

فالمتشابه والمحكم على هذا متقابلان ، وبعض القرآن متشابه وبعضه محكم ، كما قال تعالى ، هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وآخر متشابهات .

وإذا كان بعض آيات القرآن قد كرر في مواضع متعددة وسور مختلفة والمعنى الأصلي في هذه الآيات المكررة واحد ، والتركيب اللفظية يشبه بعضها بعضا لاتفاقها في أصل العبارة وقوامها مع نوع اختلاف بشيء من التقديم تارة والتأخير أخرى والذكر تارة والحذف أخرى والتعريف تارة والتشكيك أخرى والفصل تارة والوصل أخرى ونحو ذلك — كان لنا أن نطلق على هذا النوع من الآيات أنه بهذا الاعتبار متشابه القرآن ، لكن من حيث إن التشابه هنا يقع في نظم القرآن وله زيادة تعاق بنصوص الآيات : عباراتها وألفاظها المنظومة ، فأنتى أختار أن أسميه متشابه النظم في القرآن ^(١) وبعض القرآن متشابه وبعضه غير متشابه .

هذا المتشابه لا يقابل بالمحكم ، ولا يراد بهذه الآية القرينية الذكر التى قوبل فيها بين المحكم والمتشابه . أما ما حكاه السيوطى في كتابه ، الاتقان في علوم القرآن ، النوع الثالث والأربعون في المحكم والمتشابه ، حيث استعرض الآية الكريمة فجعلها محور البحث وقال فيها حكاه من الأقوال . وقيل المحكم ما لم تكرر ألفاظه ومقابله المتشابه ، كذلك ما حكاه من بقية الأقوال التى أبعد الناس فيها النجعة كالقول بأن المتشابه أوائل السور والمحكم غيرها ، والقول بأنه الناسخ والمنسوخ والمحكم غيرهما ، والقول بأنه القصص والأمثال والمحكم غيرهما ، والقول بأنه ما يؤمن به ولا يعمل والمحكم ما يؤمن به ويعمل ، والقول بأنه الألفاظ الغريبة كالأب ويؤمنون ، والمشاركة كاليد واليمين وما فيه تقديم وتأخير وعموم وخصوص ، وما يحتاج فيه إلى معرفة زمانه ومكانه وشرطه ونحو ذلك ، فشكل هذا توسع وتساهل وجرى وراء ما تشتم فيه رائحة الاشتباه كأن كل شيء صعب فهمه واحتاج إلى بحث وإعمال ففكر فهو عندهم من المتشابه المقصود بالآية ، وفوق أن هذه الأقوال كلها لا تمشى مع الآية من أولها إلى آخرها ولا تلتئم مع ما هو معروف

(١) راجع تعريف النظم في كتاب « دلائل الإعجاز » لأجرجانى ص ٦٤ ط المنار .

من الخلاف في إدراك هذا التشابه . والوقوف على لفظ الجلالة في قوله تعالى . وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون في العلم يقولون آمنا به ، فإن هذه الأنواع المذكورة بما فيها من المباحث قد أخذت ألقابا علمية أخرى واستقلت بأبواب في علوم القرآن ، وذلك ، كأقسام القرآن ، وأمثاله وقصصه وعامه وخاصه وناسخه ومنسوخه وغير ذلك .

والأولى عندي أن ينأى بأمثال هذه المباحث عن أن تكون مرادة بالآية أو مقصودة بهذا التشابه المقابل بالحكم . وبذلك تخلص الحقيقة التعريفية للتشابه الذي يحل فيه الخطب ويدق الأمر وتقف العقول الانسانية حياله مكبله بأغلال العجز والقصور : التشابه الذي من أجل السؤال عنه ضرب عمر ابن صبيغ ، وطرده الامام مالك من مجلسه رجلا اعتبره رجلا بدعة في قلبه زيغ حين قال له : الرحمن على العرش استوى ، كيف استوى ؟ التشابه المتعلق بالذات العلمية وصفاتها ، والذي إذا أطلق لفظ التشابه تبادر هو الى الفهم ، والتبادر كما يقولون علامة الحقيقة ، وكاد الناظر في أقوال العلماء وتأليفهم وصنيعهم في مباحثهم أن يدعى إجماعهم على ذلك

بعد أن انتهى بنا البحث إلى تحديد متشابه النظم في القرآن بأنه ما أعيد فيه المعنى الأصلي الواحد بعبارات مختلفة متشابهة ، نرى أنفسنا وكأنها تقسامل : إذا اختلفت العبارات في موضع عنها في آخر فكيف يكون المعنى واحدا ؟ أو ليست المعاني تابعة للألفاظ تختلف إذا اختلفت وتحد إذا اتحدت ؟

وللإجابة على هذا السؤال نفسح المجال للامام عبد القاهر الجرجاني حيث يقول ^(١) « لا يكون لإحدى العبارتين مزية على الأخرى حتى يكون لها في المعنى تأثير لا يكون لصاحبتها ؛ فإن قلت : فإذا أفادت هذه مالم تفده تلك فليستا عبارتين عن معنى واحد بل هما عبارتان عن معنيين اثنين ؟ قيل لك : إن قولنا المعنى في مثل هذا يراد به الفرض والذي أراد المتكلم إثباته أو نفيه نحو أن تقصد تشبيه زيد بالأسد فتقول زيد كالأسد ثم تريد هذا المعنى بعينه فتقول كأن زيدا الأسد ، فتقيد تشبيهه أيضا بالأسد ، إلا أنك تزيد في معنى تشبيهه زيادة لم تكن في الأول

(١) « دلائل الإعجاز » باب اللفظ والنظم ص ١٩٩ وما بعدها طبع النار .

وهي أن تجعله من فرط شجاعته وقوة قلبه وأنه لا يردعه شيء بحيث لا يتميز عن الأسد ولا يقصر عنه حتى يتوهم أنه أسد في صورة آدمي ، وإذا كان ذلك كذلك فانظر هل كانت هذه الزيادة وهذا الفرق إلا بما توخى في نظم اللفظ وتركيبه حيث قدم المكاف إلى صدر الكلام وركبت مع أن ؟ .

ثم قال بعد ذلك كلاما طويلا خرج منه بقوله : إن الفصاحة والبلاغة وتخير الألفاظ عبارة عن خصائص ووجوه تكون عليها معاني الكلام ، وعن زيادات تحدث في أصول المعاني كالذي أريتكم فيما بين زيد كالأسد ، و . وكان زيدا الأسد ، . وقوله : لا سبيل إلى أن تجيء إلى معنى البيت من الشعر والفصل من النثر فتورده بعينه وعلى خاصيته وصنعتة بعبارة أخرى حتى يكون المفهوم من هذه هو المفهوم من تلك لا يخالفه في صفة ولا وجه . ولا يفرنك قول الناس : قد أتى بالمعنى بعينه وأخذ معنى كلامه فأداه على وجهه فإنه تسامح منهم ، والمراد أنه أدى الغرض ، فأما أن يؤدي المعنى بعينه على الوجه الذي يكون عليه الكلام الأول حتى لا تعقل هنا إلا ما عقلته هناك وحتى يكون حالهما في نفسك حال الشنفين والسواريين — المتماثلين — في غاية الأحالة ، وظن يفضي بصاحبه إلى الجهالة . وللعلامة ابن تيمية ^(١) حيث يقول : وقد ذكر الله قصة موسى في مواضع من القرآن يبين في كل موضع منها مكان العبرة والاستدلال ، كما يسمى الله ورسوله وكتابه بأسماء متعددة كل اسم يدل على معنى لم يدل عليه الآخر ، كلها أسماء تختلف في المدلول وتتحد في الذات ، وإن كانت القصة المذكورة واحدة في ذاتها فصفاتها متعددة ، ففي كل جملة من الجمل معنى ليس في الجملة الأخرى . وليس في القرآن تكرار أصلا .

ظهر إذن أن هذا التشابه المكرر لمعنى أصلي واحد مع اختلاف التراكيب ، لك أن تقول إن المعنى فيه واحد ، ولك أن تقول إن المعنى فيه مختلف ، فالوحدة باعتبار أصل المعنى المراد أدائه المقصود إعطاؤه ، والاختلاف بحسب ما يعرض لهذا الأصل من زوائد يختلف بها المكرر في موضع عنه في آخر لاختلاف المقام في موضع عنه في آخر . كما أن لك بالتالي أن تعتبر ذلك تكرارا وأن لا تعتبره — كما قال ابن تيمية — تكرارا . . .

(١) معارج الوصول الرسالة الثانية . من مجموعة الرسائل ص ١٨٩ المطبعة العاصرية الشريعة طبعة ثانية .

الروح والجسد

بتلم الدكتور
تعمير الأستاذ محمد كمال الدين الشاهد

من أنا ؟ أروح أم جسد ؟ أم أن مريحا من الأثير قد كوكبه ؟
أنا ؟

يقص علينا التلمود أنه أمام عرش الأعمى ، من يوم المبعث ، سجد كل من الجسد والروح أن ينجب الجسم عن اللطم إلى تركبته ، سيموت الجسد ، إن الروح هو الذي أذب ، لا أنا ، فبدونه لا حياة ولا قوة لي ، ولكن الروح سيجادل قائلا ، لا ، إنه الجسد الذي أذب وأثم ، لقد جرفني معه ، إلى نقي ، غير مدنس .

ولكن العدالة ستأخذ مجراها ، كما يروى التلمود ، لعائلة الفاتية .

« كان لأحد الملوك حديقة غناء ، بها مائدة وغط من الذهب ، فأتى رجلين يحرسانها ، أحدهما أعمى ، والآخر أعرج .

« وقال الأعرج يوماً يحدث صاحبه ، إلى ترى فاكهة غنية ، ولكن أتى لي أن أصل إليها ؟

« فرد الأعمى ، ارتق كتنى ، وقدنى إلى المكان ، فاحصل على الفاكهة سويًا ، وحين وجد الملك أن الفاكهة قد اختفت ، أتى بالرجلين أمامه .

« فقال الأعرج ، كيف أكون أنا السارق ، وأنا لا أقدر على السير ، .

« وقال الأعمى ، لا يمكن أن أكون قد سرقت الفاكهة ، فليست أرى ، .

ولكن الملك الذكي الحكيم . وضع الأعرج فوق كسفي الأعمى . وحاكماهما كشخص واحد . .

وهكذا ينتهي التلود إلى أن العبد الإلهي سيوقع العقاب على الروح والجسد معا .

الروح والجسد متميزان : فالروح هو الذي يدفع الجسد . والجسد يؤدي ما يملكه عليه الروح .

ولكن ما هو الروح تماما ؟ إن أسهل طريق للإجابة على هذا السؤال هو أن نقول : كما أنه يوجد وسط نسميه الأثير . تحيا فيه القوى المغناطيسية ، فكذلك يوجد وسط تحيا فيه القوى الفيزيكية .

وهذا الوسط هو جوهر غير مادي ، نسميه الروح . فالروح إذن هو المجال الذي تتمثل فيه العمليات الفيزيكية .

ولما كان الروح هو الوسط الذي تتمثل فيه العمل الفيزيقي ، فقد يبدو أنه يأتي إلى الجسد لحظة الميلاد ، لا قبل ذلك . لأنه لا توجد قبل الميلاد ظاهرة فيزيكية .

مركز بحوث كيمياء علوم
SOUL and BODY

By Dr. A. E. Silverstone, Ph. D.

(مجلة الأزهر) إن ما ذكره الدكتور سيلفسترون تعليقا على ما قاله التلود هو رأيه الخاص ، وهو أمر يختلف فيه العقول . وقد روى البخاري بسنده عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله : . إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة ، ثم يكون علقه مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك . ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ... الحديث .

وهذا الكلام موافق للحسوس ، فإن الجنين يتحرك في بطن أمه بعد أربعة أشهر من وجوده في بطن أمه ، وهي مقدار المائة والعشرين يوما التي ذكرها الحديث الشريف .

على ذكرى المولد النبوى الكريم :

بعث أمة وميلاد دولة

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد السلام أبو العجا م. ح.

المدرس بكلية اللغة العربية

العالم غارق في بحار لجية من الجهالة ، والناس يمشون في أعمق مصادمة من الضلالة ، والفقر آخذ بالتواصي والأقدام ، والاضلال ضارب خيامه في كل مكان ، والشقاء يحيم على كل بيت ، والمادية تستهوي أفئدة الناس ، والشهوات مرغى لها العنان ، والظلم يوجه جيوشه حيثما أراد ، ويرسل بطشه أنى شاء ، ونظام الإقطاع صنو حكم الطغيان ، وقانون الطبقات منفذ بإحكام ، والحريات سلسلة في الأغلال ، والأنفاس معدودة على النساء والرجال ، والعقول محبوسة في ظلمات البغي ، والعلوم معقولة بضلالات الغي ، والفرس والروم في صراع مخيف وحرب سجال ، والعرب بين لاتهم وعزاهم لاهون ، وفي ضلالتهم وجهلهم سادرون .

في هذا الجو المكفهر . وفي تلك الأزمات العصبية ، وعلى فترة من الهدأة وياس من المصلحين ، ومع بزوغ الفجر وإشرافه - سفع على الدنيا نور نجم جديد .
نعم في هذا الجانب الساكن من العالم المضطرب . وفي هذه السكة المتأحله الجرداء . وبين مهاد الفقر ودثور الشقاء ، استهل محمد بن عبد الله بعلمته في يوم الاثنين التاسع من ربيع الأول (٢٠ من أبريل سنة ٥٧١ م) فتفجرت بناييع الحكمة من مواطن الضلال ، وانسابت أضواء الهدى في كل مجال ، وتلألأت أنوار العلم والمعرفة والحياة .

ولقد ارتجت الدنيا جميعها لهذا الميلاد ، وصحت من غفوتها بعد طول الرقاد ،

واقتر ثغر العالم عن بسمه الأمل ، وأحسن الناس خرا مشرق الجنبات ، وكتبا مضى الصفحات ، ورأوا نورا ساطعا يهر البصائر والأبصار ، واستمال العقول والأفكار ، وعرفوا نظاما فريدا أخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وقاد الأفراد والجماعات إلى مواطن العزة والسعادة والسلام .

كان هذا هو القدي الأول . لميلاد الإنسان الأول . فاهتزت السموات وتنبعت البشريات ، وتعمقت الآمال بهذا المولود السعيد .

وكأننا نألم الله الكائنات سر القدر ، وعنهما أنه النبي المتظر ، فاتجهت كلها نحوه ، واستشرفت أعناقها إليه ، وأخذت ترعاه وتلاحظه أينما حل وحيثما سار . واقعد نشأ صلوات الله وسلامه عليه أكمل ما يكون خلقا وخلقاً ، وأسمى ما يعرف عقلاً وفضلاً ، إذ صمد الله على عينه ، وصاغه بيديه ، وهبأه لرسالته . وأمره فأحسن تأديبه : صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة . فكان حرياً أن يخاطبه الله تبارك وتعالى بقوله « وإنك لعلى خلق عظيم » .

لهذا كان ميلاده صلى الله عليه وسلم لبداً بذلك الانقلاب الخطير في حياة العالم ، وإرهاصاً بذلك الإصلاح الشامل الذي بعث به ، وبشرى بتلك الرسالة الخالدة التي خلفت أعظم نظام عرفه البشر في السياسة والتشريع والاجتماع .

واقعد عاش صلوات الله وسلامه عليه قبل الرسالة ، مثالا يحتذى في كمال خلقه وحسن معاملته ، وصدق قوله وموفور أمانته ، حتى عرف بين أهل مكة بالصادق الأمين : كذلك اشتهر عنه لين الجانب ، وقوة العزم ، والجرأة في الحق ، والعطف على الناس ، ومواساة الضعفاء والبر بالمسكوبين ، فكانت أخلاقه أكبر داعية له ، ومعاملته أعظم دليل عليه ...

وما إن ألقى عليه عبء الرسالة ، وحمل ذلك الثقل الفادح ، وأوحى إليه أن يخرج الناس من الظلمات إلى النور ، حتى حمل اللواء ، ونظم الأداء ، ودعا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وبث في قلوب مناصريه إشعاعاً من وحي رسالته ، ونفث في نفوس مؤازريه سحراً من فيض قوته ، فكانوا منارا مشرقا لدعوته ، وجنودا مخلصين لقيادته .

ولقد حاولت قريش أن تكسف هذه الشمس المشرقة ، وتمنوه ذلك النور
القدسى الموهج الذى أعده الله لهداية العالمين به ، ولكن خاب نالها وضاع أملها ،
وردت سهامها فى نحورها ، فأصاب من الكفر وأهليه مقتلا . ولم يمض زمن قليل
حتى رأى الناس ضوء الرسالة الجديدة ، وتناثرت أشعتها بين قبائل العرب
المختلفة ، ثم استقرت بعد ثلاثة عشر عاما فى طيبة الطيبة ، أو المدينة ، كما أسماها
صلوات الله عليه .

وهناك أرست الدولة الفتية قواعدها ، وأقامت دعائمها ، وأخذت تضع الخطة
لإصلاح العالم وهداية الناس من جديد .

حمل الدعوة بأيمانهم دستور هذا الدين الجديد . وقدموا أمام دعوتهم كتاب
الله رأس القوانين . فقرأوا فيه الحرية التى يشهدونها . لا إكراه فى الدين قد
تبين الرشد من الغي . . والعادلة التى يتقدمونها : . إن الله يأمركم أن تؤدوا
الأمانات إلى أهلها . وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل . . إن الله يأمر
بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى . .
والمساواة التى حرروها : . يأبى الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا
وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم . . والإخاء الذى يبحثون عنه :
« إنما المؤمنون إخوة ، ولا يغترب بعضهم بعضا ، يحب أحدهم أن يأكل لحم
أخيه ميتا » : ثم رأوا المثل العليا فى الخلق والآداب والاجتماع يفيض بها
تشريعه ، وأعجبوا بطريقته فى العلاج حين يشخص الداء ويصف الدواء ، كما لمسوا
فى سيرة الرسول وصحبه أقصى خطة وأقوم منهاج ، وسمعوا الرسول الكريم
يجلتى أصول سنته ويوضح أساس رسالته فيقول : المعرفة رأس مالى . والعقل
أصل ديني . وذكر الله أنيسى . والثقة كبرى . والحزن رفيق . والعلم سلاحى .
والعبر ردائى . والرضا غنيمتى . والعجز غفري . والزهد حرقى . واليقين قوتى .
والصدق شفيعى . والجهاد خلقى . وقرة عينى فى الصلاة . . ويقول : الناس سواسية
كأسنان المشط . . لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى . إلى غير ذلك من
المبادئ التى جاء بها الاسلام وقررها الكتاب والسنة .

ولقد عرف العرب قبل سائر الناس هذه المبادئ الخالدة ، ولمسوا تلك المثل

الرفيعة ، فطربوا لنغمها ، ولذا لهم رنينها ، فأنصتوا لها ، واستجابوا لدعوتها ،
وشغفوا بالرسول حبا ، وزادوا برسالة كلفا ، فانضوت قبايلهم تحت لوائها ،
وانخرطوا سراعا في سلك أتباعها ، والتفوا حول حامل مشعلها ، ودخلوا أفواجا
في حوزتها ، واجتمع شتاتهم حول رايها ، وأسسوا على التقوى دولة فتية لم تلبث
إلا قليلا حتى طوت أعظم الدول تحت جناحها ، وثلت عروش الأكامرة
والقياصرة ، وامتد رواقها من المحيط الأطلسى غربا إلى سور الصين شرقا ، ومن
جبال القوقاز شمالا إلى المحيط الهندي جنوبا ، وبهذا تغير وجه التاريخ في أقصر
حبة عرفها التاريخ .

ولقد أدام الله عز المسلمين الأولين ومنحهم نصره وتوفيقه ، ورفع أعلامهم
على سواى الزمن ومنازل الأمم ، وبوأهم فى العالمين مسكنا عليا . وجعلهم
أساطين العلم والسياسة ، وقادة الشعوب والأمم ردحا طويلا من الزمن ، حتى
خلف من بعدهم خائف تكالبوا على الشهوات ، وانغمسوا فى الرذائل ، وفتنوا
تحت فتح الله عليهم من خزان الأرض وجناتها . فأدال الله دولتهم ، وسلمهم عزهم
وحريتهم . ومكن منهم أعداء دينهم ، فاستعمروا بلادهم ، وضربوا عليهم الذلة
والسكينة . وسامروهم الخسف وأهواهم .

وإن فيما يلاقيه المسلمون فى فلسطين وسواهم لأعظم العسر التى تدعو إلى
التفكير الطويل . وتوجب على المسلمين أن يفيثوا إلى دينهم ، ويرجعوا إلى دينهم .
حتى يستحقوا نصره . ويستأملوا عونه . . . ولينصرون الله من ينصره . وإن
نصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم . . .

ولعل فى ذكرى مولد الرسول الكريم . صلوات الله وسلامه عليه — ما يحفز
المسلمين عامة وشباب الهيئات الإسلامية خاصة . إلى العمل بجد وإخلاص ، فى سبيل
سيادة الإسلام وتنفيذ شرائعه ، والعمل بمبادئه .

وفقنا الله جميعا لما فيه نصر دينه وإعزاز كلمته ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

أبو نواس

بين الطبع والصناعة

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الحميد المنصور

المدرس بكلية اللغة العربية

أصدق الشعراء فطرة ، وأصفاهم ملكاً ، وأصحهم طبيعة ، وأقومهم سليقة .
وأجودهم تصويراً للمعاني واقتراحاً للأفكار ، وأثباتاً للأحياء : هو الذي يشهد
التجاوب بين شعره ونفسه ، وتموى الأواصر وتشتت الروابط بين ما يهدير به حسه
من المعاني ، ويشرق في فريضة من جمال الفكر وإبداع الخيال . وكلما كان شعر
الشاعر استجابة لشعور يحتاج في أطواء قلبه ، وتصويراً لإحساس يضطرم في
نفسه ، كان أمس اتصالاً بالطبع ، وأسرع نفاذاً إلى القلب ، وأشد إثارة
للأحاسيس والعواطف .

والشاعر الفحل دائماً تنور في نفسه المعاني ، وتشتعل الحواسر وتشتجر
الأفكار وتندافع الأخميلة ، فلا يملك حبسها ، ولا يستطيع كبتها ، بل ينطلق بها
كالسيل الجارف لا تقف أمامه الحواجز والسدود . وكالفارس المتناحر ما استطاع
دفعه ولا تعويقه .

ذلك شعر الفطرة والطبيعة ، يدخل على القلب من غير أنش ، ويلامس النفس
دون عناء أو جهد ، ويبقى خالداً لا تنكره الأذواق ولا تحمده الأسماع . لأنه ضمن
الطبيعة التي لم تجتذب له بهرجة ، ولم تحفل له بزيئة ، ولم تقتسر له الأصباغ مما يصح
وما لا يصح . نعم قد تداخله الأصباغ وتسرى في ثناياه الألوان الزاهية الجميلة ،
ولكنها كذلك ألوان طبيعية لم تحشد لها صنعة ، ولم يحتل في رسمها فكر ، ولم يدخل
في تصويرها تكلف أو اعتساف ، وبذلك تظل دائماً وعلى تنابع الأيام قوية الضوء
ساطعة اللعان ، لا تبلى ، ولا تتخاق ولا تنصل ولا تحول .

فإذا نصب معين الشاعر وفتر إحساسه . وركدت خواجه وأفكاره ، وإذا
نقص جدّ شأن قلبه والتهاب عواطفه . راح يعتسف الأخيلة ، ويقتسر الأفكار ،
ويستجمع الشوارد من هنا وهناك ، يؤلف منها أشتاتاً متنافرة وأمشاجاً متناكرة .
وصوراً قد لا ترضى الذوق ولا تروج عند نقاد الأدب : وذلك شعر الصنعة
ونتاج التكلف . وقد يخطئ الشاعر القوي فيحاول أن يوشى شعره بألوان الحلى
 وأنواع الزينة . فيكون إقبالاً على هذا وتكافه له ورصده كل ما يملك لاقتناصه . سبياً
في فتور إحساسه وتراخي شعوره ونقص الفطرة لديه . قد تجود الصنعة ، وتحاول
أن تطاول الطبع مطاوعة . وليكنها لا بد أن تجور على المعنى الذي يريد الشاعر
ويحتفل له الأديب . وإذا حسنت الصنعة مرة فهي في عشرات أخرى باردة
غثة غير مقبولة .

وإذا حاول الشاعر أن يقتسر الأخيلة اقتساراً . وأن يقتص ألوان البديع
ليوشى بها شعره ويحلى أدبه ، وإذا جهد في التماس التكت واصطياد الزينات
والحلى ، فلا بد أن يشتد التراخي بينه وبين نفسه . ويخيم الشعور على عاطفته وحسه :
ومن هنا كانت جذية الصنعة على الأديب وطغيانها على الطبع وتشويهها للمعاني .
وإن خلعت على الألفاظ بريقاً وتشويقاً عريضاً

والمهم فيما أرى هو أن يترك المرء نفسه على سجيتها ، ويمكن لها في طبيعتها ،
ويترك لها تخير الطريق الذي تحبه وترتاح له وتأنس إليه . فإذا اتجهت إلى المبالغة
في تصوير معنى . كان لها من "طبع" سليم والفطرة الصحيحة ما يحفظ التلازم
والتساوق بين حقيقةه ومجازها .

ونحن نحب أن نعرض هنا صورتين لشعر الطابع القوي الموهوب ، إحداهما
لشاعر قديم هو امرؤ القيس ، والأخرى للشاعر الذي نتحدث عنه وهو أبو نواس .
نرى كيف تأتلف الفطرة القوية الحياشة مع الصنعة الجميلة البراقة ، وكيف يتحكم
الطبع في المحسنات البديعية فيجعلهم جزءاً منه .

قال امرؤ القيس :

وليل كموج البحر أرخى سدوله على بأنواع الهموم ليلتي

فقلت له لما تغطي بصلبه وأردف أعجازا وناء بكاسكل :
 ألا أيها الليل الطويل ألا انجى بصبح وما الإصباح منك بأمثل
 فانظر كيف أراد الشاعر أن يعبر عن طول ليله وكثرة الآلام والهموم التي
 نحتشد فيه فأتى بهذه الصورة التي تبعث الرهبة وتثير الوحشة وتدعو إلى الإشفاق
 بأن جعل الليل كوج البحر يغمر الناس ويغطي على الأحياء ، ويكنهم بسدوله
 وأستاره فلا يدع لهم منفذا ولا يترك لديهم متنفسا ، وجعل له صلبا وصدرًا وأعجازا
 ودعاه وخاطبه ، وهذا كله مبالغة في التعبير واتجاه إلى حسن التصوير ، وقد ساعد
 على هذا فطرة لا تضعف ، وقوة لا تتخاذل ، وسجية وثابة لا تعرف التراخي
 ولا التكوص .

ويقول أبو نواس :

وخيمة ناطور برأس منيفة لها يدا من رمدها برليل
 إذا عارضتها الشمس قامت ظلالها ولب واجهها آذنت بدخون
 حلبت لأصحابي بها درة الصبا بصهباء من ماء الكروم شمول
 إذا ما أتت دون اللهاة من الفنى عما هم من صدره برحيل
 فلما توفى الشمس جنح من الدجى واستجمعت غير جميل

أراد أبو نواس فيما أراده من هذه الصورة الفنية الرائعة ، أن يقول : إن الخمر
 تنقى همومه وتزيل آلامه ، وإنه يلعب ويلهو ويتجن حين يحن الليل وينشر الدجى
 أظفابه على الخليفة ، فبالغ في تصوير المعنى مبالغة تدعو إلى الإعجاب حقاً وتملأ
 النفس طرباً وروعة ، وأخبر أن الهم يدعو للرحيل من صدره حين توشك الخمر
 من لهاته . وانظر إلى هذا المعنى الرائع البديع الذي يصوره تصويراً قوياً بقوله :
 فلما توفى الشمس جنح من الدجى .

ومع ذلك نرى الطبع وثاباً مشرقاً لم تضعفه صنعة ، ولم يساور نضرته بهرج
 متكاف أو زينة مقتسرة ؛ ذلك لأن طبيعته وجيشان نفسه وامتلاءها بالإحساس
 والشعور ، يدفعه لأن يقيس الصورة بالصورة ، ويقارن الانداد بالانداد ، ويجمع
 النظير إلى النظير ليتبها له معناه في أكمل أشكاله وأوفى ضروبه ، ثم تعرض له

ألوان الزينة رفيقة وادعة تتوالت اليه هيئة طائعة من غير أن يرتصد لها في كل ناحية . وتلم به مهلة مستجيبة دون أن يجهد نفسه في تصيدها من كل مكان . وهكذا كان أبو نواس في أكثر شعره شاعرا واتاه الطبع ، واجتمع له غزارة الإحساس ، وفيض الشعور ، وبراعة الخيال ، وإشراق المعاني وسموها ، وأسلس له زمام اللغة ينفق من كنوزها ويلعب بألفاظها . ويتنقل بين رياضها وأزهارها . لا يتكلف قولاً ، ولا يعتسف معنى ، ولا يخال لفكرة . ولو أنه صرف نفسه عن الشعر صرفاً وراض حياته على غيره لاستعصى عليه الطبع وأبت ذلك شياطين الشعر . فهو شاعر بروحه . وشاعر بأعصابه . وشاعر بكل ما فيه من فكر وإحساس وعاطفة .

وهناك صورة أخرى من صورته الشديدة تجلت فيها قوة الضبع ولطف الزينة . قال :

وحرام كالياقوت بيت ~~منقبت كغيره من بني~~ وكادت بكفى في الزجاجة أن تدمى

فأحسن بها شيخوخة في إلتافها وألطف بها بين المفاصل والعظم

تغازل عقل المرء من ابتسامه وتخدعه عن لبه وعن الحلم

وهل هناك أجمل راحة وأبلغ تعبيراً وألطف دخولا على النفس وإثارة للحس وتهيجا للعاطفة من قوله : . . . تغازل عقل المرء . . .

ومن شعره الموشح بألوان البديع قوله :

إن هذا يرى ولا رأى للأحرى حق أنى أعده إنسانا

ذاك في الظن وهو عندي كالذي لم يكن وإن كان كانا

وفي هذا ما يسميه علماء البلاغة المذهب الكلامي . وهو إيراد حجة المطلوب . فهو يقول : إن هذا يرى أنى أعده إنسانا وهو أحق فلا رأى له فهو ليس بإنسان ،

ثم يؤكد ذلك بقوله : إنه عند نفسه إنسان وهو غلبي لا قيمة له ولا وجوده
كأن لم يكن .

ومن الهزل الذي يراد به الجد قوله :

وإذا ما تمى أذاك مفاخرًا فقل عدا عن ذا كيف أكلت للضب

وهو من أبلغ ما يقال في السخرية البالغة والتهكم الشنيع . ومن التصدير ورد
العجز على الصدر قوله :

وحياة رأسك لا أعدو دلتها وجبء رأسك

وقوله :

ظن بي من قد كلفت فهو يحسبون على الظن

ومن لزوم ما لا يلزم قوله :

أما وزند أبي على إنه زند إذا استوريت سهل قد حكا
إني لبأى الصنع على مهمي من غيركم ويعاف إلا مدحكا
ومن الاقتباس قوله :

خط في الأرداف سطر من عروض الشعر موزون

لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون

وقوله :

قل لليلح أما تروى الحديث بما خالفت فيه وقد جاءت به الصحف

إن القلوب لأجناد مجندة لله في الأرض بالآهواء لختاف

فما تعارف منها فهو مؤتلف وما تناكر منها فهو مختلف

ومن الغلو وهو ادعاء ما لا يمكن قوله :

لا يزال أثير حيث حلت فليس 'شراها' نهار
وقوله :

وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التي لم تخلق
وقد كرر هذا المعنى بقوله :

حتى الذي في الرحم لم يك صورة لغواده من خوفه خفقان

وقد اختلف العلماء حول هذا المعنى كثيرا فقال صاحب «معاهد التنقيص» ،
المتساعلون في هذا النوع كثيرون كأبي نواس وابن هانيء الأندلسي والمني
والمعي ، والاضراب عن ذلك أسب ، وقال أيضا ، ومن لطيف ما يحكى هنا
أن العتابي الشاعر لقي أبا نواس فقال له : «أما استحييت من الله بقولك ، وأخفت
أهل الشرك ... ؟ » فقال له أبو نواس : «وأنت أما استحييت من الله
بقولك :
مركز تحقيق كتب التراث العربي

ما زلت في غمرات الموت مطرحا يضيق عني وسيع الرأي من حيل
فلم تول دائما تسعى بالعطفك لي حتى اختلست حياتي من يدي أجلى

فقال له العتابي : «ما علم الله وعلمت أن هذا ليس مثل ذاك ، ولكنك أعددت
كل باصع جوابا» .

وقال الجرجاني في كتابه الوساطة بين المنبي وخصومه : «وأما ما جرى مجرى
أبي نواس ، وأخفت أهل الشرك ، فهو من المحال الفاسد ، وكل هذا عند أهل
العلم معيب مردود ومنفي مردول ، وإن كان أهل الإغراب وأصحاب البديع من
المحدثين قد لهجوا به واستحسنوه وتنافسوا فيه وبارى بعضهم بعضا به» .

وقال المرزباني في الموشح : «هذا البيت ، وأخفت أهل الشرك ، بادي العوار
حدا ... فقد أحال وأسرف وتجاوز» .

ولكن قدامة بن جعفر في كتابه نقد الشعر يستحسنه ويحتج له ويقول : إنه إنما أراد به المبالغة والغلو بما يخرج عن المرجود ويدخل في باب الممدوم ليلبغ النهاية في النعت .

ونحن نميل إلى رأيه ونرى أنه أراد أن يبلغ في قوته الخليفة وشمول هيبة وإحاطة سطوته حتى ليس هناك صورة من الرهبة والخوف والرهغ يمكن أن تخطر بالفكر أو تطوف بالبال إلا دخلت في هذا المعنى الذي رسمه وافرعه خياله وغاص عليه فكره وأحسن تحديده بيانه ، لأنه رجل تأثرت مشاعره وامتزج إحساسه بالخوف من الرشيد ، فهو يحذره يمتطآن ونائما ، ويرهب دائما سطوته وشدة أخذه ، وإن صرامة الرشيد كانت تملك على الشهراء وخاصة مثل أبي نواس نفوسهم ، فإذا أرادوا مدحه تمثل أمامهم ما يحذرونه فيه ويخشونه منه ، ولم يكن أبو نواس وحده من الذي يبلغ في الحديث عن سطوته وقوته ، بل هذا أشجع السلي يمدحه فيقول :

مركز تحقيق مكتبة مصر

وعلى عدوك يابن عمر محمد
فإذا أتته رعته وإذا أتته

على أنها تستطيع أن تقول : إن أبو نواس لم يكن ممدوحا لشعنه وحكمه ،
وتسبب بتعابه ؛ وإن وقع في شعرة شيء من الشعرة الشعرية أو الاصباح
البديعية فهو أجمل الألوان التي تأتي عفوا وتجيء طبعه لم يبدل هذا جهدا ولم يذلف
فيها فكريا ، ولم يرتصد قوة لاقتناص أشباحها وتأليف أمشاجها من هنا وهناك ،
ومن هنا كان أبو نواس شاعر التابع السمع ، والفطرة القوية الموهوبة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الترك والاسلام

عقب الحرب العالمية الأولى التي انتهت في سنة (١٩١٨) م بهزيمة المانيا وأنصارها ومن شايعها، أصاب الأتراك يوم من أيام الأمم ، وكانوا من الدول التي دارت عليها الدائرة، وللأمم أيام تمر عليها لتجدد وجودها إن كان بها كدما^(١)، أو لتقضى عليها إن كانت قد استنفدت جميع مذكورها من الحياة .

هذه الأيام تلم بالأمم وهي بين برائن أعدائها، فتشمرها بالخطر على وجودها، وتعتصر منها شعورا قويا بضرورة حفظ ذاتها . وكيف يكون ذلك والاسنة مشرعة إلى صدورها من كل جانب؟ فتستमित، وتوحى إليها هذه الاستماتة أن تتجرد من كل غريزة غير غريزة تازع البقاء . فإذا انتهت مناضلتها هذه عن الفوز بإبعاد الخطر عنها، عادت إلى متابعة وجودها الاجتماعي، ولكن على أصول غير التي كانت عليها، فتتخلى عن أخلاق كانت متأصلة فيها، وتقاليدها كانت عزيزة عليها، وعادات كانت جزأ من نفسيتهما، خشية أن يكون في ثايبا هذه الأخلاق والتقاليد والعبادات ما يعرض وجودها للخطر كما حدث لها من قبل .

من الثورات التي تتخذ مثالا قبيحا لما نحن بسيله ، الثورة الفرنسية ، فإنها لما أخذت جذوتها، أسفرت عن ضروب من التطرف تعتبر من لوازم هذه الحالة، منها تجرد ذويها من الدين وتحاييمهم عن كل عقيدة، وغلوم في مبدأ المساواة إلى حد أنهم حذفوا من لهجتهم لفظة مسيو (سيدى) وأبدلوا بها لفظة السيد، كراهية أن تكون في لهجتهم كلمة عليها عبقة من امتيازات الطبقات، وليس بين الفرنسيين سيد ومسود . ولكن لم تمض إلا سنين قليلة حتى عاد كل ذلك إلى نصابه من الاعتدال .

ثار الأتراك ثورتهم في سنة (١٩١٨) فكانت أجب ثورة في تاريخ الاغلايات الاجتماعية ، إذ توصلوا، وقد خسروا الحرب، إلى استرداد جميع حقوقهم

من قاهريهم ، وفاز عوهم إياها منازعة الابداد في مؤتمر لوزان ، واستعادوا كل ما كان لهم من السيادة على بلادهم ، بيد ان كانت قد قسمت سواحلها على العامعين فيها ، حتى شهد لهم خصومهم بالرجولة البالغة اقصى حدودها ، والبطولة التي ليس وراها سرى لمستزيد . فكان هذا الحادث أغرب ما دونه المؤرخون في تاريخ الانقلابات ، وأمثل ما يستشهد به الاجتماعيون على مدى ما تستطيع احداثه روح الاجتماع في الشعوب .

والذي يجب أن لا يغفل عنه الباحث الاجتماعي في الثورة التركية انها لم تكن على غرار كل ثورة ، وفي حدودها المروفة ، فانها لم تكن لأسباب داخلية كسواها ، حين ثور الامة فيها على حكموتها او على بعض طوائفها المتعاطية عليها ، ولكنها كانت ثورة ذات أغراض خارجية ضد أمم كانت تود الحد من سلطانها على حقوقها الطبيعية . فكان هذا الحادث أغرب ما دونه المؤرخون في تاريخ الثورات ، وأمثل ما يستشهد به الاجتماعيون على مدى ما تستطيع احداثه روح الشعور بالكرامة في شعب من الشعوب .

والا تراك في هذه الناحية كغيرهم ، خرجوا من هذه الثورة متأثرين بروح تواقه لكل جديد ، سيئة الظن بكل قديم ، وقد كان الدين بما حمله مما ليس فيه ، وما استغل له اسمه من التضليل والتقوية ، في مقدمة ما اتجهت أنظارهم اليه ، إلا أنهم حفظوا له كرامته فلم يمسوه بسوء ، مكثفين بحذف الطبقة المهيمنة عليه ، ذهابا منهم إلى أن حذف تلك الطبقة ، ينجي الآخذين به من تضليلاتهم ، ويحميهم من التسلط على عقولهم ، فلا يستطيعون استغلال جهالتهم ، ولا تستخيرهم لارادتهم . وفاتهم ان الاستمرار على هذا الوضع يفضي إلى إقفار بلاد الترك من علماء الدين ، ويتسع المجال أمام الناس فيها الى الوضع والابتداع ، فتؤول بهم الحال إلى شرمال ، وهذا ما لا تصبر عليه أمة عرفت بالغيرة الدينية كالامة التركية . فلما هدأ روع الجماعة ، وأمنت الدولة فيه على وجودها ، ارتفعت أصوات الشعب بالمطالبة بتأسيس كلية لدراسة أصول الدين ، وتعميم تدريس مبادئه وأصوله بالمدارس الابتدائية والثانوية ، لتشب النابتة عارفة بأمور دينها ، ملئة بمراى شريعنها .

فما كاد الشعب يؤانس قبولا من مفكرية لندارك ما عسى أن يوجد من
النقص في بنائه ، ليلبغ المثل الأعلى من الحياة الانسانية الفاضلة تحقيقاً لما قدره له
مبدؤه العظيم ، حتى نهض بطالب حكومته بوجوب تدريس الدين لطلاب المدارس
الابتدائية والثانوية ، وقد وجد منها إذنا صاغية لأنها حكومة شعبية لا عمل إلا
تحقيق رغبات الجماعة . ولكنها قررت لذلك نظاما حكيماً يحمى الحقائق الدينية
أن يندس اليها ما ليس منها من أوهام العامة ، فشرطت أن لا يتجارى على تدريس
الدين غير المدرسين الحائزين لجميع الشروط المطلوبة من مدرسى مدارسها .

وقد تلقت الأهرام من مراسلها باسطنبول تلغرافاً نشرته من نحو عشرة أشهر
جاء فيه قوله :

« أذاعت وزارة التربية الوطنية منشورا أباححت فيه انشاء مدارس للتعليم
الدينى بعد الحصول على ترخيص من هذه الوزارة .

« ولكنها اشترطت اقرار وزارة التربية للبرامج التى تضعها تلك المدارس ،
(الكتب) التى تستعملها ، وقد فرحت أن يكون مدرسو هذه المدارس حائزين
لجميع الشروط المطلوبة من مدرسيها . . . الخ .

وقد سارعت الامة تحت قيادة كبار زعمائها للاستفادة من هذا الترخيص
الى أبعد حد ، حتى أنها قررت إنشاء كلية لاصول الدين لتخريج العلماء الذين
يدرسون الدين فى المدارس الحكومية ، وقد وصل إلى القاهرة أخيراً واحد من
رجال هذه النهضة المباركة ، وهو سعادة السيد تحسين جندوفلو وزير المعارف
السابق فى تركيا ، ومهمته الآن الاطلاع على برنامج التعليم فى كلية اصول الدين
المصرية لاقتباس ما يحسن اقتباسه من علومها ، وقد رأى أن يزور حضرة صاحب
الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الفناوى ويحدثه فى هذه الشؤون
الدينية ويستهديه برأىها . فأكرم فضيلته وفادته ، وذكر له طرفاً من ماضى
الأتراك الحافل بجلال الأعمال فى خدمة المسلمين والاسلام ، ورجا الله أن
تستمر هذه الدولة حريصة على دينها ، عاملة على أعلا كلته بين العالم .

فأجابه سعادة السيد تحسين جندوفلو بأن الأتراك لا يزالون على ما كانوا

عليه مستمسكين بدينهم ، غيورين عليه ، واستشهد على صحة قوله بحركتهم الأخيرة في ضرورة فتح مدارس لتدريس الدين ، وإنشاء كلية له لتخريج العلماء .

فأظهر فضيلة الأستاذ الأكبر اغتباطه بهذه الأنباء ، وتنى للقائمين بهذه الحركة المباركة في تركيا أن يكمل الله جهودهم النجاح .

ولما وصل الحديث الى ذكر مدى انتشار التعليم الديني في تركيا ، أجاب رئيس لجنة المعارف بأن الدين يدرس الآن في المدارس الابتدائية والثانوية كمادة أساسية ، وأضاف الى ذلك أن في النية تخصيص مدارس ثانوية لإعداد طلبتها للانخراط في سلك طلبة كلية أصول الدين المزمع إنشاؤها وللاحاقها (بالجامعة العلمية) .

فأفاض فضيلة الأستاذ الأكبر في جلالة هذا العمل وفائدته في تكوين نابتة فاضلة ترفع مجد الأمة الى أدلى المكنات ، وتصون الأخلاق أن تتدهور الى مكان يحق من الانحلال ، وأبدى فضيلته استعداد الأزهر للمعاونة على إنشاء هذه الكلية .

ثم توج فضيلته حديثه برجاء أن يهتم وزراء الأمور الترك بتدريس اللغة العربية في المدارس التركية .

فقال سعادة رئيس لجنة المعارف في المجلس الوطني بأن هناك مشروعاً يرمى الى تدريسها إجبارياً في تلك المدارس .

هذا ملخص الحديث الذي دار بين حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر ووزاره الكبير سعادة تحسين جندوفلو الذي ندب لتنفيذ رغبة المجلس الوطني التركي في إعادة التربية الإسلامية الى سابق عهدها في تركيا .

بما يجب أن نلفت النظر اليه في هذا الشأن أن الأمة التركية الممثلة في مجلسها النيابي لم تجعل لرجال الدين القوامه المطلقة على ضمائر الناس ، ولا الاستبداد بحق التوجيه الروحي لهم ، كما هي الحالة لدى الأمم الشرقية ، فجعلت لنفسها القوامه عليهم ، فاشتدلت النظر في البرنامج الذي يضعه رجال الدين للتعليم الديني ، وفي الكتب التي يؤلفونها لنشر الدين وتعميمه .

واشترطت ما هو أخص من ذلك في الحد من حرية رجال الدين مبالغة في المحافظة على حرية الضمائر ، وذلك بأن حظرت أن تفتح مدرسة للتعليم الديني حيث لا توجد مدرسة للتعليم العلماني ، أي التعليم الخالي من التأثير الديني ، وهي ترمي بذلك إلى درء خطر الهدوان على حرية الضمائر .

والذي يلوح لنا أن الأتراك لا يخشون من سيادة الروح الإسلامية على جماعتهم ، لأنهم يعرفون ما للاسلام من فضل في تنوير العقول ، وتقرير الحقوق الطبيعية للإنسان ، وفي عنايته بنشر العلوم والفنون ، وفي حكمته في قيادة الجماعات في معترك المزاومات العالمية : كل هذا يعرفه الأتراك ويقدرونه قدره ، وقد وضعوا فيه كتباً ، ولكنهم بتمريرهم هذه التحفظات يسيثون الظن بالذين يتولون أمره ، فلا يعرفون مدى إدراكهم لروح الاسلام السامية ، ومبلغ فهمهم لحكمته العالية . بل يعلمون أن من التحفوا شمامسة رجال الدين أفراداً لا يقدرون تبعاً قيادة النفوس قدرها ، فيضطرب سيرهم في توجيهها ، فيجيدون بها عن الصراط السوي إلى سبل يتأدون منها إلى غايات بعيدة من الجمود العقلي ، أو الانحلال الخلق . وليس هذا بما رمى إليه الأتراك من ثورتهم التي ضربت بها الأمثال ، وسجلت لهم صفحة خاصة في تاريخ الوطنية الصحيحة .

وعلى كل حال فإن عود الأتراك إلى إباحة التعليم الديني يعتبر حادثاً جليلاً في تاريخ الأمة الإسلامية ، وسيكون له رد فعل في جميع الشعوب الشرقية ، لأن في سماحهم الاشتغال بأمور الدين بعد التحلل منه نحو ربع قرن ، إيذاناً منهم بأن الاسلام ضروري لحفظ كيان الجماعة ، فهم في هذه الناحية لم يحاكوا الأوروبيين الذين قرروا أن لا تشتغل الاداة الحكومية بغير المصالح الدنيوية ، تاركة أمور الدين لرجالها ، والمبالاة بهم أو اهمالهم إلى الأفراد أنفسهم ، شأنهم مع الدين كشأنهم مع كل دعوة يقوم بها جماعة في حدود الحرية الشخصية .

ولا يجوز أن يغيب عنا بأن هذا الموقف من برلمان الأمة حيال الدين سيكون له أثر كبير في محو البدع التي تزوج في الكتب الشعبية باسم الاسلام ، ولا يقرها الكتاب ولا السنة ، ولا يملك أهل البصر سلطة لإزالتها ، ومنع ظهور أمثالها . وبعد فسيشهد العالم كله بعد حقبة من الدهر شعباً إسلامياً لا تكسر مظهره شائبة من بدع العامة ، ولا من طامات كذبة المتصوفة ؟

يومان . . . !

الكلمة التي ألقاها حضرة صاحب الفضيلة الشيخ محمد عبد اللطيف دراز

مدير الأزهر والمعاهد الدينية

يوم ٢٢ / ٢ / ١٩٤٨ بدار الإذاعة

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرات السادة :

السلام عليكم ورحمة الله .

أما بعد ، فما أعجب التاريخ فيما يبدى ويعيد ! وما أعظم أحداث الدهر
وتصرفاته عبرة للعتبرين وذكري للمستبصرين .

يومان للعروبة والإسلام تشابهتا حتى اختلطتا ، وتقاربا حتى اتحدتا ، فما يمتاز
أحدهما عن الآخر ؛ هما يومان في عداد الزمن ، ويوم واحد في أحداث التاريخ : يومنا
الحاضر ، ويوم صلاح الدين . القوم هم القوم ، والميدان هو الميدان ، والدعوى هي
الدعوى ، وإن أخذت لونا آخر واختلفت في بعض الصور والأوضاع . فأوربا التي
تولت كبر الحروب الصليبية هي التي تتولى اليوم كبر كل حرب ضد العرب والمسلمين
في فلسطين وغير فلسطين ، وليست أمريكا إلا امتدادا لأوروبا عتيقة وثقافة
وسياسة ، وكان بيت المقدس هو الغرض من الحروب الصليبية ، وكذلك هو نفسه
الغرض من الحرب الصهيونية ، وكما زجت الصليبية بيت المقدس في دعواها
تضليلا تستر به أغراضها من الفتح والملك والافساد في الأرض ، فكذلك
الصهيونية لا تريد من وراء دعواها في هذا البيت المقدس إلا الدولة والملك
لتكون سرطانا في جسم العالم العربي يقضى على أممه ودوله ، وتقوم تلك الدولة
اليهودية به — لا قدر الله — في وسط الوطن الاسلامي مباءة بغى وضرار
وافساد ، تفرق فيه أبناءه ، وتؤلب عليه أعداءه .

وقديما كان الصليبيون من الغرب والتتر من الشرق يدا واحدة على العرب والمسلمين ، واليوم أوروبا وأمريكا من الغرب وروسيا من الشرق يدا واحدة كذلك على العرب والمسلمين : فأهلاً بالتاريخ يميد نفسه ، ويدعونا الى ما نشأنا عليه من أحداث ، وما عرف لنا من واقف ، ليكتب الابناء والأحفاد من صفح المجد بأيديهم مثل ما كتب الآباء والأجداد .

ما هذه البروق والرعود ؟ وما هذه الزلازل والانهوازل ؟ وما هذا العالم تتحزب أحزابه ، وتتكتب كتائبه ، وتجتمع أممه ودوله من مشرق الأرض ومغربها ، تسوقها الدسائس الدنيئة والأغراض السافلة ، لتروع الهادين ، وتخيف الآمنين ، وتحارب المسالمين ! . ما بال هذه الحضارة التي كان يظنها الناس قسطاس العدالة ودستور الحقوق ، وأساس التقدم في جميع مناحي الحياة ، قد ارتدت على أعقابها خاسرة مرتكسة في هذا الدرك من التعصب والجهالة ، حتى عميت عن الحق في أجلى مظاهره وأثبت مواضعه وأحق قضاياها ، فاندفعت في حمية الجاهلية تدوس العدالة ، وتغتصب الحقوق ، وتثير الحروب ، وتعثر في الأرض فسادا .

سبحانك ربى ! أياكون للذهب الصهيوغى وغيره من ضروب المادة كل هذا السلطان في الأرض ، أو تحط الروحانيات والمعنويات السامية في الناس الى أن تصبح مهينة ذليلة تسحق تحت أقدام المادية الغليظة التي نهضت في الأرض بقوةها وجبروتها عملاقا ماردا وشيطانا رجيا ، ترهب الناس بفظاعته وتخيفهم بقوته . هو في الشرق الشيوعية وجيوشها الحمراء ، وفي الغرب الرأسمالية وقابلهما الذرية : ثم بعد ذلك تتظاهر هذه المدنية الخداعة فتذكر الإنسان وحقوقه في ملكه ، وفي تقرير مصيره ، الى آخر ما يجأرون به في الشدة والضيق ، وينسونه في الفرج والسعة . فمن يراؤون ؟ وعلى من يكذبون ؟ أياظن هؤلاء الناس أن الله الذى خلق السموات والأرض بالحق وأقامها لأعظم غاية من الحق ، يحيط به علمه وتديره وإرادته : أياظنون أن الله قد دفع هذا الخلق كله الى بضعة نفر من طواغيت الأرض يعلنون فيه الفساد والفسيان ، ويرفون باسم الشيطان راية البغى والعدوان ! . كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا . راجعوا التاريخ أيها الناس وقلوبوا صفحاته : لقد كان النبي من الانبياء عليهم الصلاة والسلام ،

أو المصلح من المصلحين يأتي وهو نقطة من الحق في خضم متلاطم الأمواج من الباطل ، فلا تزال هذه النقطة تتسع وتتسع ، ولا يزال أمرها يكبر ويمتد حتى تغمر اليم على سعتة وتلاطم أمواجه ، وتحيل ذلك المحيط من الماء الاجاج عذبا زلالا سائغا للشاربين . ذلك مثل الحق والباطل ، وهو مثل خالد لا يزول : وإن عى الناس عن ذلك فلينظروا إلى هذا المثل الذي افتحنا به حديثنا ، فقد ثمانمائة سنة على التقريب ، كان للعرب والمسلمين مع المتعصبين عليهم من أهل البغي والمدوان نفس هذا الموقف الذي يقفه الصيونيون وأنصارهم من العالم شرقا وغربا ، وكان زعيم العرب والمسلمين إذ ذاك هو البطل العظيم والملك العظيم : صلاح الدين الأيوبي . ولقد تألب المشرق والمغرب كلاهما على العرب والمسلمين في ذلك العهد ، وأجابت الأمم عليهم بخيلها ورجلها ، فدهمها الصليبيون من الغرب ، ودهمها التتر من الشرق ، وارتكب الفريقان في طريقهما إلى هذه البلاد مع كل أمة أوقعها سوء الحظ في طريقهم أشنع وأبشع ما رواه التاريخ من تشكيل وتدمير ؛ وكانت مصر كما هي اليوم قطب الرسى وزعيمة اللواء ، وقلب العروبة والإسلام ؛ فجمعت العرب والمسلمين جميعا تحت لوائها ، ووقفت للدنيا كلها بالمرصاد ، تضرب الصليبيين بإحدى يديها وتضرب التتر بالأخرى ، واستمرت الحروب وطالت وامتدت أيامها ونسكباتها ، حتى ردت مصر التتر أربع مرات ، أولاهما في معركة « عين جالوت » سنة ٦٥٧ هـ بقيادة ركن الدين بيبرس ، وكانت أخراها بالقرب من « دمشق » سنة ٧٠٢ هـ في عهد الملك الناصر ، محمد بن قلاوون الذي هزمتهم جنوده هزيمة منكرة ، وكان عدد الأسرى منهم في هذه المعركة عشرة آلاف أسير فقط ، فضلا عن القتلى والجرحى ، وكانت هذه الموقعة هي الفاصلة بين حق مصر والعرب والمسلمين ، وباطل التتر المعتدين الظالمين . أما الصليبيون فكانوا من قبل ذلك وفي أثنائه في حرب طاحنة دائمة مع العرب والمسلمين . وقد استمرت هذه الحروب ما يقرب من مائة عام ، وسقطت آخر دولة لهم بالشام سنة ٦٩١ هجرية . فله أنت يا مصر من بلد عظيم ، ولله العرب والمسلمون ! .

ماتنا سنة تجتمع فيها الدنيا كلها على مصر ، ومن ورائها العرب والمسلمون ، فتقف لهم طول هذه المدة رافعة الرأس ناصعة الجبين ، صامدة ثابتة لاتهين

ولا تلين ، ولا يفل لها حد ، ولا يثنى لها عزم ، حتى لاحت تباشير الصباح ،
وبزغ فجر النصر ، وتقدمت مصر والعرب أمام العالم كله تركز راية المجد على
أعلى قمة في تاريخ الجهاد ، والعاقبة للمتقين .

فإذا ينتظر المتألبون المنعصبون الباغون على العرب والمسلمين اليوم ،
إلا أمثالها . ليكون ذلك إن شاء الله ، ولتعلن نبأه بعد حين . وإذا كان الأحزاب
في الدهر الأول قد لاقوا نكالهم على يد — صلاح الدين — وخلفائه من بعده ،
فإن كل ملك ورئيس دولة وحاكم في بلاد العروبة والاسلام اليوم ، ليعتبر
نفسه خليفة من خلفاء صلاح الدين ، داعياً بدعوته ، وقائماً بأمره . وإن الشعوب
العربية والاسلامية اليوم هي بحمد الله أكثر عدداً وأعز نفراً . ذلك إلى أن
الحق هو الحق ، والباطل هو الباطل ، فما نصر به الله العرب والمسلمين من تأييد
ومعونة فيما مضى ، سينصرهم بمثله اليوم ، وهو سبحانه وتعالى نعم المولى ونعم
النصير : فلا يهولنكم معشر العرب والمسلمين ذلك الضجيج والتهريج ، ولا يخيفنكم
من القوم ما جمعوا من جمع ، ولا مما أعدوا من عدة ، ولا ما لوتوا به من جيش
دولى وغير دولى : فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع
الصابرين .

أيها العرب والمسلمون :

أخلصوا النيات ، ووحّدوا الصفوف ، وجاهدوا باسم الله في سبيل الله ؛
واعلموا أنكم تقفون مع القوم أمام سنة الله القاهرة في الحق والباطل ، والله تعالى
يقول : « بل نقذف بالحق على الباطل ، فيدمغه فإذا هو زاهق ، ويقول :
« وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » .

دعائم الاستقرار

في التشريع القرآني

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد محمد المدني

المفتش بالأزهر

من طبيعة الإنسان أنه ينفر من كل تكليف يحد من حريته ، ويقيده في تصرفه بشيء من القيود . ذلك أن الانسان -- من بين الكائنات الحية -- ذو اعتداد بنفسه ، وشعور بقوة التفكير وسلطانة العقل : فهو يتساءل دائماً : لماذا يقيد ؟ وبأى حق يقيده الآخرون ؟ وهل هم في تقييدهم إياه منصفون أو متحكمون ؟ فإذا استطاع أن يجيب على هذه الأسئلة في نفسه إجابات معقولة يطمئن إليها ، أو أن يسمع من غيره إجابات تريحه وتطمئنه ، قبل مبدأ التقييد والنزول عن حريته ، واعترف بحق الذي يقيده وأذن لسلطانته ، وهيساً حيانه على حساب هذا القيد طائعاً مختاراً حتى يصبح بعد حين أمراً مألوفاً لديه ، يحبه ، ويدافع عنه ، ولا يرضى به بديلاً : أما إذا لم يقتنع بالإجابات النفسية أو الخارجية عن هذه الأسئلة أو عن بعضها ، فانه يثور على هذا القيد أو على من يحاول فرضه عليه ، أو يبيع نفسه للتخلص منه في خفية كلما أمكنه هذا التخلص وأمن معه على نفسه وماله وما يهمه . لهذا كانت كل القوانين والتكاليف محتاجة إلى دعائم ثلاث ، لكي تستقر وتؤدي إلى الغاية منها ، وتصبح في نظر المجتمع قاعدة التعامل والسلوك : تلك الدعائم الثلاث هي :

- (١) إقناع المكافين بحاجتهم إلى قبول مبدأ التقييد في الجانب المعين الذي يراد التكليف به ، وفرض أى نوع من أنواع الالتزام فيه : وبعبارة أخرى : مجيء هذا التقييد بعد أن يشعر المكافون أنفسهم بحاجتهم إلى مجيئه .
- (٢) إقناعهم بشرعية السلطة التي عنها يصدر هذا التقييد .

(٣) إقناعهم بأن هذا التقيد قد جاء على قدر الحاجة ، فلم يشطط ولم يسرف .
هذه هي الدعائم الثلاث التي تستقر عليها القوانين ، وترسخ في المجتمع ،
وتكسب الهبة والاحترام ، وتأمين شر الانتقاض عليها ، والتفلت من سلطانها
في السر أو العلانية ؛ ولذلك لا تعمر القوانين أو التكاليف التي أساسها مجرد
الرغبة من فارضها دون الشعور بها من جانب المكلفين ؛ ولا تعمر القوانين
التي تفرض من غير ذي حق مشروع في فرضها ، لأن سنادها حينئذ هو القوة ،
والقوة عارض يزول ؛ ولا تعمر القوانين التي يشعر المكلفون بها بأنها ثقيلة
فادحة تكلفهم من الأعباء فوق ما يستطيعون ، أو تتجاوز بهم حدود ما تقضى به
الحاجة ولو كان محتملا في نفسه .

* * *

ولقد قام التشريع القرآني في كل ما جاء به على هذه الدعائم الثلاث ؛ ولذلك
كان هو الشريعة الخالدة الصالحة لكل زمان ومكان ، القادرة على أن تبث في
العالم أسباب الطمأنينة والرضا والأمن والسلامة ، وأن تقيه عوامل الزلزل
والاضطراب والفوضى .

أما الدعامة الأولى : وهي إقناع المكلفين بحاجتهم الى التقيد بتشريع معين
في أمر معين ، فإننا نرى لها مظاهر في الكتاب الكريم ، نذكر منها ما يأتي :
(١) كان القرآن الكريم لا ينزل في مكة إلا فيما يتصل بالعقائد وأصول
الرسالة وأمّهات الأخلاق والفضائل ، ولا نكاد نجد حكما تفصيليا في أية ناحية
من النواحي العملية نزل في مكة ؛ وهذا أمر طبيعي لأن القوم حينئذ لم يكونوا
مستعدين لتقبل أي قيد يقيدون به في أحوالهم ونظامهم الاجتماعي ؛ فقد كانت
عروق الشرك ضاربة فيهم ، متشبثة ببرائتها في عقولهم وقلوبهم ، وكانوا من ناحية
أخرى وحدات متناثرة تتمثل في العصيات القبلية وما يتفرع منها ، متخذة أفقا
أضيق كعصيات العشيرة أو البطن أو الفخذ أو البوّة الى أب قريب ؛ ومثل
هذه الوحدات لا تكون أمة واحدة منجانسة ذات أهداف واضحة ، وميول
متلاقية . فلو أن القرآن الكريم عاجلهم في هذا الطور بالتشريع التفصيلي ، وكلفهم
مع الإيمان والتوحيد بهذه القوانين التي نراه قد عني بها فيما بعد حين كان ينزل

بالمدينة ، لعرض أحكامه وقوانينه ، بل دعوته كلها للضياع ، ولكان مثله كمثل من يذر الحب في أرض غير صالحة - أو فترة غير صالحة - للإنبات والإثمار ، دون أن يهدمها ويشقها ويمسوها ، ويبني لبذوره فيها أسباب الصلاح ، من رى وتعمد ، وأوقات مناسبة .

والخلاصة في هذا الجانب أن التشريع الإسلامي القانوني لم يأت في مكة ، ولم ينزل به القرآن لأهلها ؛ لأن البيئة لم تكن شاعرة بحاجتها إليه ، ولا مستعدة لتلقيه بالقبول ؛ ولهذا توفرت آيات الكتاب الكريم في هذه الفترة على تطهير هذا المجتمع من أدران الشرك ومفاسد العقيدة والأخلاق ، شأن الذي يهدم ويزيل الانقاض قبل البناء .

(٢) عندما استقر شأن المسلمين كأمة ، وتميزوا في المدينة كدولة ناشئة لها شئون داخلية وخارجية ، لم يكن هم القرآن أن يشرع الأحكام ويرتبها ارتجالاً حتى تصور أن الأمر كان أمر قوانين تها وتصاص ويلقى بها إلى الناس لينفذوها حين تعرض لهم مشاكل تنصل بها ؛ لم يكن الأمر كذلك ، وإنما كان التشريع ينزل على حسب الحوادث ؛ فإذا برز في محيط المسلمين أمر يحتاج إلى حكم نزل هذا الحكم ، وإذا غنى المسلمون بالسؤال عن شيء أو التماس تشريع فيه أجيئوا إلى ذلك حسب ما تقضى به أحوالهم ؛ ولذلك يجد فيما ذكره المفسرون والمشتغلون بالقرآن أبواباً من العلم هي ما يعرف بأسباب النزول ، ونجد الروايات تتكفل في جانب كثير من الآيات ببيان الشأن الذي نزلت فيه ، والفضية التي كانت سبباً في هذا التشريع ، والإحساس الاجتماعي الذي تها له وتطلبه ، ودعا إليه وترقبه .

ومن أراد أن يتجلى له ذلك فليرجع إلى هذه الأسباب في كثير من الآيات التشريعية في شئون الزواج والطلاق واللعان والنفقات والمهور ، وفي شئون الحجاب ودخول البيوت وآداب الاجتماع العامة والخاصة بين الأسر والأفراد والمروسين والرؤساء ، وفي شئون العبادة وشروطها ورخصها ، ونحو ذلك .

ونكتفي هنا بذكر مثال واحد هو مثال المجادلة ، وهي المرأة التي كان زوجها قد ظاهر منها ؛ حدث الرواة أن أوس بن الصامت قال لزوجته خولة بنت ثعلبة ،

وقد غضب لمراجعته إياه في شأن من شئونه : أنت على كظفر أمي . وهي عبارة كان العرب في جاهليتهم يحرمون بها نساءهم على أنفسهم ، فلما سكن غضبه أراد أن يماودها ولكنها أبت حتى تستفتي في أمرها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانطلقت إليه ، وقصت عليه قصتها ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أراك إلا قد حرمت عليه ، فراجعته وقالت : يا رسول الله إنه ما ذكر لفظ الطلاق ، فقال لها : لم ينزل على في أمرك شيء وما أراك إلا قد حرمت عليه ، فظلت تراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم وتجادله وتقول : يا رسول الله إن أوساً تزوجني وأنا شابة مرغوب في ، فلما خلا سني ، وثرث بعاني — أي كثر أولادي — جماعني عليه كأمة وتركني إلى غير أحد ، فان كنت تجد لي رخصة يا رسول الله فحدثني بها ، فلا يزيد الرسول عليه الصلاة والسلام على أن يقول لها : لم ينزل على في أمرك شيء وما أراك إلا قد حرمت عليه ؛ ثم اتجهت المرأة إلى الله شاكية ضارعة تقول : رب أشكرك إليك وحدتي ، وشدة فاقتي ، وما يشق علي من فراق زوجي ، رب إنك تعلم أن لي منه صبية صفارا إن تركتهم إليه ضاعوا ، وإن ضممتهم إلى جاني لم يضرني ، فأذن الله لشكواها ، وقبيل ضراعتها ، وأنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم قوله : قد سمع الله قول التي تجادل في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما ، إن الله سميع بصير . الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم ، وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا ، وإن الله لعفو غفور . والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتأسا ، ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير ، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتأسا ، فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ، ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله ، وتلك حدود الله ، وللكافرين عذاب أليم .

فالظاهر إذن كان نظاما معروفا عند العرب ، وقد علم الله أنه نظام صائر بالتشريع الإسلامي إلى الإلغاء لأنه غير صالح للبقاء ، ولكنه مع ذلك لم يعاجل بإلغائه ، وتركه حتى تنبأ له الجو التام بعد وقوع هذه الحادثة المؤثرة ، والحاج الزوجة فيها على الله ورسوله مما ألفاه .

وفي ذلك دلالة واضحة على أن التشريع القرآني لم يكن يأتي لمجرد أخذ الناس به وإملائه عليهم ، وإنما كان يأتي تلبية للحاجة ، وبجارية لتطلب الحوادث والرأى العام لإياه .

(٣) نجد القرآن الكريم يقرن الأحكام التي يشرعها غالبا بما يدل على انبناء تشريعه فيها على مصالح الناس أنفسهم ، وعلى أن أحوالهم تتطلبها ، ولا تستقيم بدونها ، فيعطى بذلك فكرة واضحة عن أن المشرع لا يشرع لمجرد الرغبة في أن يشرع ، ولكن ليحقق مصلحة معينة بعد أن تتضح حاجة المجتمع الى تحقيقها ، وعدم صلاحه بدونها ؛ ومن ذلك أنه يعمل لكثير من الأحكام تعليقات تبين أحيانا الباعث الذي يبعث عليها ، وأحيانا المصلحة التي تتضمنها ، وأحيانا المضار التي تترتب على إهمالها وعدم الأخذ بها .

يقول الله تعالى في تحريم نكاح المشركات والإنتكاح الى المشركين :
 « ولا تسكحوا المشركات حتى يؤمنن » ، « ولا تؤمنن مؤمنة خيرة من مشركة ولو أعجبتكم ،
 ولا تؤمننكموا المشركين حتى يؤمنوا » ، ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم ،
 أولئك يدعون الى النار ، والله يدعو الى الجنة والمغفرة بإذنه ، ويبين آياته للناس
 لعلهم يتذكرون ،

لا شك أن أمر النكاح واختيار الزوجة أو الزوج أمر له أهميته وخطورته ،
 ولا شك أن البيئة الإسلامية بيئة مقطعة من بيئة العرب المشركين ، وقد كانوا
 جميعا أهل وطن واحد ، وبينهم وشائج قرى وصلات معاملة ، وأنواع من
 الصداقات والتعارف ، فإذا أراد مسلم أن يتزوج ، ووقع اختياره على مشركة
 فليس هذا عجيبا ، وربما طغت عليه عوامل الرغبة والحرص على هذه الزوجية
 فقدمها على عوامل الاخوة الدينية ؛ فلما حرم الله زواج المشركين والمشركات
 قرنه بأمرين :

أحدهما : أن الاختيار الزوجي لم تقتصره الطبيعة على جانب معين حتى يشعر
 الانسان بأنه إذا لم يفز ببيغيته ، ويحقق طلبته من هذا الاتفاق بالذات فإنها لا تحقق ،
 ولكن في أفقه الخاص المحيط به المشارك له في العقيدة والرأى فرصا للاختيار
 يتحقق بها مطلب من لا يريد التعت ، فيمكنه أن يجد زوجات مؤمنات وأزواجا

مؤمنين ، وإذا كان في جانب المشركين والمشركات شيء من عوامل الاغراء والترجيع أثار في نفسه الإعجاب ، فليذكر أن الإيمان صفة ترجع سائر الصفات عند الموازنة ؛ فلو أن أمة مؤمنة وزنت بامرأة مشركة لكان لها في نفس المؤمن رجحان وإيثار ، ولو أن عبدا مؤمنا وزن برجل مشرك لكان له في نفس المؤمن رجحان وإيثار ؛ فهو بهذا يثير فيهم نخوة الإيمان ، ويقابل بها نخوة المعازمة والمكاثرة والتفاخر بالزوجية . ولا شك أنه يصيب من ذلك هدفه ، والقوم مؤمنون لا يعدلون بإيمانهم شيئا ما من أغراض هذه الحياة .

الثاني : وصفه المشركين والمشركات في هذا المجال بقوله « أولئك يدعون إلى النار ، فإن معناه : كيف يمرض المؤمن نفسه وما عسى أن يرزق به من بنين وبنات ثمرة لهذه الزوجية إلى خطر الارتقاء في أحضان الشرك المفضي إلى النار ؟ وهل مثل ذلك في القياس إلا كمثل امرئ يلقى بنفسه طائعا مخارا في النار ويظن أنه في حصانة منها وإنما لا تحرقه ؟ ودي . قد تحصن هو منها فهل يضمن حصانة ذريته ؟ لا شك أن الحزم هو الابتعاد عن النار جملة ، والتمس الحياة في كنف آمن غير هذا الكنف .

ويقول الله جل ثناؤه في أمر الحيض : « ويسألونك عن الحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في الحيض ولا يمتسجنوهن حتى يطهرن ، فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ، إن الله يحب النوايين ويحب المتطهرين » .

فيعمل التشريع في ذلك ، وهو وجوب اعتزال النساء في الحيض ، وعدم قربهن إلا بعد التطهر ، بعلّة طيبة يتقبلها كل عاقل حريص على نفسه وصحته ، وهي أن هذا الحيض أذى : وفي هذا التمييز دقة وبراعة وإقناع ، حيث جعله نفس الأذى ، وأتى به صالحا لأن يفهم منه معنى التأذى والنفرة من المنكر والتزهد عنه ، وأن يفهم منه معنى التأثير على الصحة وإلحاق الضرر بالبرآء المعافين . وفي العدد القادم إن شاء الله تعالى ، تتابع الحديث في هذا الموضوع .

المسلمون بين الامس واليوم

كيف تقدموا ، ولماذا تأخروا ، وكيف ينهضون ؟

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ فكري ياسين

المدير المساعد لمكتب البحوث والثقافة

بالأزهر الشريف

لو أننا ذهبنا نستعرض أحوال المسلمين في عصورهم الأولى ، ورحنا نستنبيء أخبارهم الماضية ، ونستقرئ ما كانوا عليه من مجد وسؤدد — لوجدنا أنهم قد سبقوا في كل شأن من شئون الحياة ، وبرعوا في كل ناحية من نواحيها ، ولاقتنع معنا كل منصف بأنه لم تكد شمس الإسلام تسطع فوق رُبىّ تلسم الديار المترامية ، والربوع الفسيحة ، حتى كان المسلمون قد انتهبوا من ممالك ناصية العلوم والفنون ، والأخذ بزمام الثقافة والعرفان ، وحتى كانوا قد تمت لهم الصدارة الدولية والاجتماعية بالرغم من سلطان تينك الأمتين العظيمتين العريقتين في الحضارة والرقى ، وحتى ظهر من المسلمين القواد العظام ، والسياسيون المحضكون ، والعلماء النحارير ، والمشرعون المتمكنون ، والأدباء الزايع ، والأطباء الماهرون ، والفلاسفة الممتازون ، كما ظهر بينهم عدد غير قليل من رجال الفكر والإصلاح ، وأرباب الأموال والتجارات ، وعباقرة الإداريين والمحكّثام ، وأعلام الولاة والوزراء ، وسوى أولئك وهؤلاء ممن ساروا بأمتهم قدما نحو ذرى الكمال والسمو ، ووصلوا بها إلى قمم العلا والمجد .

ولو أننا رحنا بعد ذلك كله ننقّب بين ذخائر المكتبة العربية ، ونبحث في جواهرها وكنوزها الثمينة ، ونحصي تلك الثروة العلمية الطائلة التي خلفها لنا المسلمون الأولون في تلك الأحقاب الزاهرة ، لاستطعنا أن نقول — ونحن مطمئنون كل الاطمئنان — : إن هذه الثروة لم تسبق إليها أية أمة من الأمم ،

ولم تتح لأي شعب من الشعوب ، ولا استطاعت تلك الثروة أن تتحدى ثقافات الأمم المختلفة في شتى أنحاء الأرض بما حوته من نفائس وفرادى في كافة المواد والفنون ، وسائر العلوم والمعارف .

ولعل القارىء الكريم بعد هذا كله ، يفكر في أن يسألني عن السرّ في هذه العظمة ، وعن السبب في هذا النهوض ، الذي لا يوجد له نظير بين أمم الإنسانية جمعاء .

والسبب يسير كل اليسر ، سهل أعظم السهولة : ذلك أن العالم كان متمطشاً أكبر التمطش إلى دين ، يقوّم من اعوجاجه ، ويصلح من فساد ، وينتقل به من حياة الجاهلية الجاهلاء إلى حياة راقية مهذبة ، وينتشل من وهدة الهمجية والفوضى والاضطراب ، إلى مجتمع تسود فيه الطمأنينة ، ويتوفر فيه النظام والاستقرار ، ويأخذ بيده إلى حيث يشعر بالوجود الصحيح ، والإنسانية الفاضلة : فما إن أشرقت الأرض بنور الإسلام ، حتى وجد العالم فيه ضالته المنشودة ، ورأى فيه طلبته المبتغاة ، وأقبل عليه ينفياً ظلاله فيها يضمن له أنها عيشة ، وما يكفل له خير حياة ؛ وما إن أنزل الله تعالى القرآن الكريم ، والدستور العظيم ، والحجة البالغة ، والحبل المتين ، وأمدّه الرسول بالسنّة المطهرة ، شارحة له ، ومبينة لمعانيه ، حتى أيقن أهل النصفة والاعتدال بأن هذا هو الدين الصالح ، والنظام المحكم ، والمنهاج القويم ؛ لما اشتمل عليه من حقائق صحيحة ، وأصول متينة ، وعقائد سليمة ، وأحكام يسيرة ، وحنيفية سمحة ، وهداية واضحة ، وآداب راقية ، وأنظمة عالية ؛ ولما جاء به من أخلاق كريمة ، ومعاملات سامية ؛ ولما حث عليه من صفات نبيلة ، وفضائل حميدة ؛ ولما رغب فيه من برّ ومعروف ، وخير وإحسان ؛ فسارعوا إلى الدخول فيه أفواجا ، وهرعوا إليه من كل حذب وصبوب ، وبادروا إلى الأخذ بقواعده ومناهجه ، والإصغاء إلى نصائحه وإرشاداته ، والسير على تعاليمه ومبادئه ؛ وآمنوا بأن الانضمام تحت لواء الإسلام هو خير طريق ، يحقق لهم ما يرجونه من سعادة وفلاح ، ويضمن لهم ما يصبون إليه من حياة إنسانية رشيدة ، ومُثل اجتماعية عالية ، ومعنويات مثالية كاملة .

وقد انضم إلى هذا أن المسلمين الأولين كانوا ممن صفت نفوسهم ، وعلت همهم ، وقويت عزائمهم ، وندرت شجاعتهم ، وأخلصوا لعقائدهم ، واستمسكوا بدينهم ، وعملوا به في السر والعلن ، وراقبوا الله في الجهر والخفاء .

وكانوا ممن يضحون الدنيا في سبيل الدين ، ويذلون كل مرتخص وغال لإعلاء كلمة الله ؛ ومن يرون أن الدين هو كل شيء ، وأنه يجب أن يفندى بأعز ما يملكه المسلم ؛ ومن يعتقدون أن كل فرد منهم إنما هو مجند لخدمة الاسلام ، وأن هذه الخدمة يجب أن تكون في الميدان الذي يتيسر لصاحبه أن يذبح فيه ، وأن يبرز فيه بأثر نافع ؛ فكان منهم المشتغلون بالفتوح والإمارات ، والقضاء والإفتاء ، والتعليم ، والحراسة والرباطة ، وغيرها ؛ وكان منهم المشتغلون بالعلوم يدرسونها ويحفظونها ، ويدونونها ، ويرتبونها ، ويستخرجون أنواعها وضروبها ، ويتكرون طرقها وأساليبها ، ويضعون فيها المعاجم والمدونات ، والموسوعات والمصنفات التي نفاخر بها اليوم ، والتي تعد أعظم ما وصلنا إليه في العلوم الإسلامية والقرآنية وعلوم السنة ، والعلوم اللسانية ؛ فوصلوا بفضل كل هذه الجهود الجبارة إلى تشييد صرح ذلك المجد الشاخص الذي سجله لهم التاريخ ، والذي يشهد بما كان لهم من مضاء العزيمة ، وصدق الإيمان ، وطول الباع في شتى العلوم والفنون .

وهناك سبب جوهري آخر غير كل هذا الذي ذكرناه ، وهو أن تلك النشأة القوية المبدئية ، قد كونت في طبائع المسلمين الأولين خلقا إسلاميا عاما ، تركز في نفوس أفرادهم وجماعاتهم ، وزود بكل الصفات والمفومات التي تبني عليها حضارة الأمم ، وتموم عليها عظامتها ، ويتأسس فوقها رقيها ومدنيتها ، وقد استطاعوا بوساطة هذا الخلق المتين ، وهذه النشأة الدينية القوية أن يبلغوا ما وصلوا إليه ، بما ألعنا إليه آنفا .

هذه هي أم الأسباب الخاصة والعامة التي نهضت بالمسلمين الأولين ، وسمت بهم إلى مشارف العزة والكمال ، وجعلتهم يخلقون في سماوات المجد والرفعة .